220

الطبعة العربية الأصليّة
الطبعة التاسعة

الشيطان والآنسة پريم

رواية

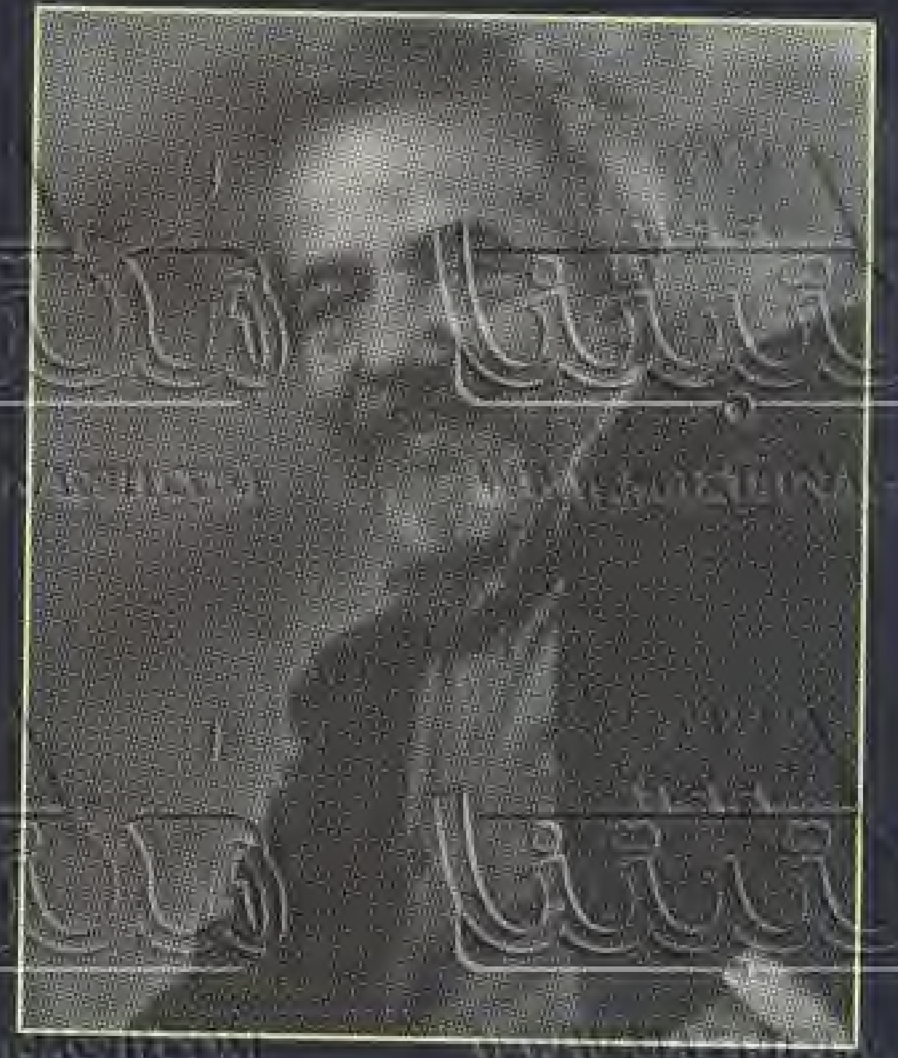


پاولو كويلو

مؤلف الرائعة العالمية "الخيميائي"



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر



باولو كويلو

قبل أن يصبح باولو كويلو، المولود سنة ١٩٤٧ في ريو دي جانيرو، كاتباً شعبيّاً معروفاً، كان كاتباً مسرحياً، ومدير مسرح، وإنساناً هيبياً، ومؤلّف أغانٍ شعبية لأشهر نجوم البرازيل.

سنة ١٩٨٦، سلك طريق مار يعقوب، المزار الإسباني القديم، ثم وصف تجربته في كتاب أسماه «حاجّ كومبوستيلا»، ونشره سنة ١٩٨٧. وفي السنة التالية، صدر كتابه الثاني «الخيميائي»، فغدا واحداً من أكثر الكتّاب المعاصرين قرّاءً، وظاهرة حقيقية في عالم النشر، وحاز المرتبة الأولى بين تسع وعشرين دولة. وتوالت، من ثمَّ، سلسلة مؤلفاته تحصد المزيد من الشهرة والانتشار: منها: الفالكيريز، على نهر پييدرا هناك جلست فبكيت، الجبل الخامس، ڤيرونيكا تقرّر أن تموت، الشيطان والآنسة بريم، إحدى عشرة دقيقة، الزهير، ساحرة بورتوبيللو، الرابح يبقى وحيداً، بريدا، مكتوب، أوراق محارب الضوء.

نشرت مؤلفاته في أكثر من ١٦٠ دولة، وترجمت إلى ٦٩ لغة، وبيع منها أكثر من ١٠٠ مليون نسخة. نـال العديد من الأوسمة والتقديرات و٣٣ جائزة عالمية، منها مؤخراً شهادة غينيس للعام ٢٠٠٩ كون أعماله ترجمت إلى أكبر عدد من اللغات بين جميع كتّاب العالم. باولو كويلو عضو في الأكاديمية البرازيلية للآداب منذ عام ٢٠٠٢. يكتب عموداً أسبوعياً يتم نشره في الصحف والمجلات في جميع أنحاء العالم. وقد عُيّن سفير التنوّع الثقافي أمام الأونيسكو ومستشاراً خاصاً للحوار بين الثقافات والتقارب الروحي.

«تعود كتب باولو كويلو بالنفع على الجميع، لأنها تستحث قدرتنا على الأحلام، ورغبتنا في البحث عن أنفسنا»

فيليب دوست بلازي، وزير الثقافة الفرنسي، أبريل ١٩٩٦

* * *

«يكتب باولو كويلو نثراً مميّزاً ومركّباً يمنح القارىء شعوراً بالأمان»

Dertagesspiegel

ألمانيا، مارس ١٩٩٨

* * *

«يمضي بنا باولو كويلو في سفر خارق، ويجعلنا ندرك بساطة الأفكار العظيمة وتعقيدات هذا العالم»

Hebdomadaire Down Town

اليونان، ١٨مارس ١٩٩٨

* * *

«باولو كويلو هو الكاتب المفضّل لدى أبطال الرياضة، وفقاً لدراسة أجراها فريق عملنا»

Journal du Dimanche

فرنسا، يونيو ١٩٩٨

7/5/2012

الكتاب

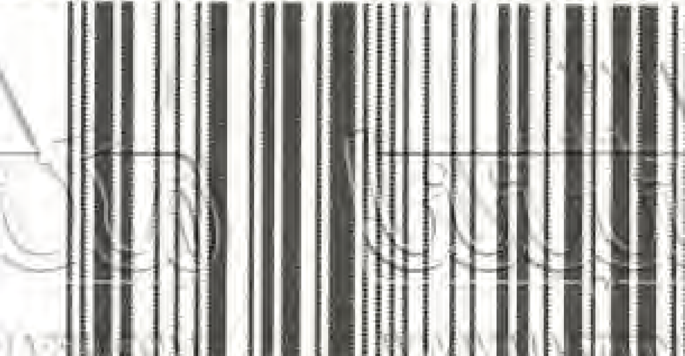
في "الشيطان والآنسة بريم" يسردُ باولو كويلو الوقائع المتخيَّلة لصراعٍ معتاد جداً، لكنّه، في الوقت نفسه، فلسفيّ وأخلاقي وميتافيزيقي جداً. وبما أنه كذلك، فلن تكون الإجابة عنه يسيرة. وفي معرض السعي وراء الإجابات الممكنة، وهي لا تُحصى، يلجأ كويلو إلى ما يجيدُ صنعه بحذقٍ ودراية، وهو سردُ حكاية.

يحلّ غريبٌ بين أهل "بسكوس"، القرية المقيمة على استقامة أهلها وطيبتهم، وعلى ميراثٍ من الخرافات الهجينة، القديمة. وبصحبة الغريب شيطان وسبائكُ ذهباً، ورغبةٌ في امتحانِ طبيعةِ البشر: هل ينزع الإنسانُ إلى الخيرِ أم ينزع، فطرياً، إلى الشرّ؟ وهل يُمكنُ أن يكون الخير والشرّ في طبعه خالصين؟

الآنسة شانتال بريم، نادلة الحانة، والعجوز برتا تشتركان في فعلِ الفداء الذي منه يأتي الخلاص. وبين شانتال التي هي الوجه الأنثوي ليَهوذا، وبرتا الرائية التي تقيم على عتبة حياة متصلةٍ بالموت، والغريب الذي أوقعته المأساة في التجربة لكي يهتدي إلى ذاته، يُنسج سياق أمثولة ممتعة، وإن كانت شاقة، تسرد حكاية الصراع الأزلي بين النور والظلمات.

هل يمكن للجريمة أن تؤسِّس لوعدٍ بالخلاص؟ هل المأساة قدرٌ أم خيار؟ في هذه الرواية لا يبتكر باولو كويلو أجوبة عن ألف سؤال، لكنّه يجعلُ من التأمّل في شرط الحرية مدخلًا للإجابة. كأنه يقول: ليس مهمّاً أن تفضي بك الدرب إلى اليقين، بل المهمّ أن تسلك الدرب.

ISBN 978-9953-88-255-0



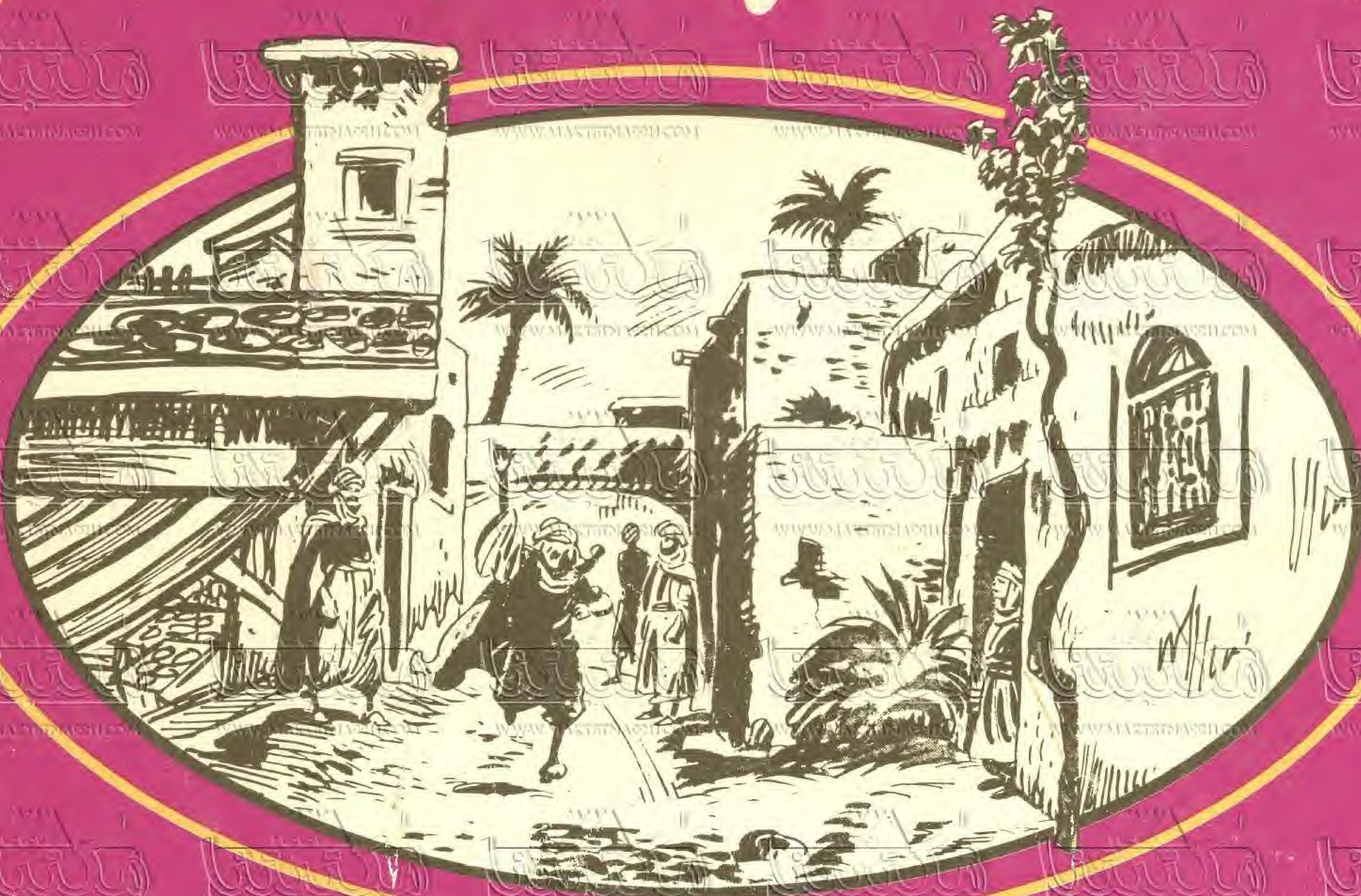
شارع جان دارك - بناية الوهاد
ص ب: ٨٣٧٥ - بيروت - لبنان
تلفون: ٧٥٠٨٧٢ - ٧٢٢ - ٩٦١١٣٥٠ +
تلفون+فاكس: ٣٤١٩٠٧ - ٣٤٢٠٠٥ - ٩٦١١٧٥٢٥٤٧ +

tradebooks@all-prints.com
www.all-prints.com



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

احلى الحكايا



طرائف من التراث العربي

إعداد

عبد الأمير علي مهنا

كتابنا القادم

دار
الفكر اللبناني

الشيطان
والآنسة بريم

پاولو كويلو

ترجمة: جواد صيداوي و بسّام حجّار

تدقيق لغوي: روحي طعمة

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

وسأله أحدُ الرُؤَساءِ قال: «ما أعملُ أيّها المعلّم الصّالح، لأرث حياةً أبديّة؟».

قال له يسوع: «لِمَ تدعوني صالحاً؟ صالِحُ اللّهُ، لا صالحَ إلا هو».

(لوقا، الفصل الثامن عشر، الآيتان: ١٨، ١٩)

مقدمة الكاتب لسلسلة
رواياته الصادرة بالعربية

كان أحد كبار متصوّفي الإسلام، وسوف ندعوه هنا حسن، يُحتضَر، عندما سأله تلميذ من تلاميذه:

ـ من كان معلّمك ايها المعلّم؟

أجاب: «بل قل المئات من المعلمين. وإذا كان لي أن أسمّيهم جميعاً، فسوف يستغرق ذلك شهوراً عديدة، وربما سنوات. وسوف ينتهي بي الأمر إلى نسيان بعضهم».

ـ «ولكن، ألم يكن لبعضهم تأثير عليك أكبر من تأثير الآخرين؟»

استغرق حسن في التفكير دقيقة كاملة، ثم قال:

«كان هناك ثلاثة في الواقع، تعلّمت منهم أموراً على جانب كبير من الأهمية:

«أولهم كان لصاً. فقد حدث يوماً أنني تُهت في الصحراء، ولم أتمكّن من الوصول إلى البيت إلا في ساعة متأخرة جداً من الليل. وكنت قد أودعت جاري مفتاح البيت، ولم أملك الشجاعة لإيقاظه في تلك الساعة. وفي النهاية، صادفت رجلاً طلبت منه المساعدة، ففتح لي قفل الباب في لمح البصر.

«أثار الأمر إعجابي الشديد، ورجوته أن يعلّمني كيف فعل ذلك.

فأخبرني بأنه يعتاش من سرقة الناس. لكنني كنت شديد الامتنان له، فدعوته إلى المبيت في منزلي.

«مكث عندي شهراً واحداً. كان يخرج كل ليلة، وهو يقول: سأذهب إلى العمل. أما أنت، فداوم على التأمل، وأكثر من الصلاة. وكنت دائماً أسأله عندما يعود، ما إذا كان قد غنم شيئاً. وكان جوابه يتّخذ، على الدوام، منوالاً واحداً لا يتغير: 'لم أوفق في اغتنام شيء هذا المساء. لكنني، إذا شاء الله، سأعاود المحاولة في الغد'.

«كان رجلاً سعيداً. لم أره يوماً يستسلم لليأس جزاء عودته صفر اليدين. من بعدها، وخلال القسم الأكبر من حياتي، عندما كنت أستغرق في التامل يوماً بعد يوم، من دون أن يحدث أي شيء، ومن دون أن أحقق اتّصالي بالله، كنت أستعيد كلمات ذلك اللص: 'لم أوفق بشيء هذا المساء، لكنني، إذا شاء الله، سأعاود المحاولة في الغد'. كان ذلك يمنحني القوة على المتابعة».

ـ «ومن كان المعلّم الثاني؟».

ـ «كان كلباً. فقد حدث أن كنت متوجّهاً إلى النهر لأشرب قليلاً من الماء، عندما ظهر هذا الكلب. كان عطشاً أيضاً. لكنه، عندما اقترب من حافة النهر، شاهد كلباً آخر فيه. ولم يكن هذا غير انعكاس لصورته في الماء.

«دبّ الفزع في الكلب، فتراجع إلى الوراء وراح ينبح. بذل ما بوسعه ليُبعد الكلب الآخر، ولكن شيئاً من هذا لم يحصل بالطبع. وفي النهاية، قرّر الكلب، وقد غلبه الظمأ الشديد، أن يواجه الوضع، فألقى بنفسه في النهر. وكان أن اختفت الصورة هذه المرة».

توقّف حسن قليلاً، ثم تابع:

ـ «أخيراً، كان معلّمي الثالث ولداً. فقد حدث أن رأيته يسير باتجاه الجامع، حاملاً شمعة بيده، فبادرته بالسؤال: هل أضأت هذه الشمعة بنفسك؟ فردّ علي الصبي بالإيجاب. ولما كان يقلقني أن

يلعب الأولاد بالنار، تابعت بإلحاح: اسمع يا صبي: في لحظة من اللحظات كانت هذه الشمعة مطفأة. أتستطيع أن تخبرني من أين جاءت النار التي تشعلها؟

«ضحك الصبي، وأطفأ الشمعة، ثم ردّ يسألني: وأنت يا سيدي، أتستطيع أن تخبرني إلى أين ذهبت النار التي كانت مشتعلة هنا؟

«أدركت حينها كم كنت غبيًا. من ذا الذي يُشعل نار الحكمة؟ وإلى أين تذهب؟ أدركت أن الإنسان، على مثال تلك الشمعة، يحمل في قلبه النار المقدّسة للحظات معينة، ولكنه لا يعرف إطلاقاً أين أُشعلت. وبدأت، منذ ذلك الحين، أسرّ بمشاعري وأفكاري لكلّ ما يحيط بي: للسحب والأشجار والأنهار والغابات، للرجال والنساء. كان لي، طوال حياتي، الآلاف من المعلمين. وبتّ أثق بأن النار سوف تتوهّج عندما أحتاج إليها. كنت تلميذ الحياة، وما زلت تلميذها. لقد استقيت المعرفة وتعلمت من أشياء أكثر بساطة، من أشياء غير متوقّعة، مثل الحكايات التي يرويها الآباء والأمهات لأولادهم».

تبيّن لنا هذه القصة الجميلة المقتبسة من موروث التصوّف في الإسلام، أن أحد أقدم الطرق التقليدية، التي اعتمدها الإنسان لنقل معرفة جيله، كانت القصص والروايات. وفي ما يتعلق بي، كانت الثقافة العربية إلى جانبي خلال معظم أيام حياتي، تبيّن لي أموراً لم يستطع العالم، الذي أعيش فيه، أن يفقه معناها. واليوم، أستطيع للمرة الأولى، أن أردّ على المكرمة بمثلها، وأنا أرقب كتبي تنشرها «شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ـ لبنان»، في المنطقة نفسها التي كثيراً ما أثارت مخيلتي. وإنّني مُمتنّ للناشر السيد تحسين الخياط لما أبداه من حماس لجعل أعمالي في متناول قرّاء العربية، من خلال ترجمتها، ترجمة اتّسمت بالجديّة، بعد حصوله مني، وفقاً للأصول المعتمدة، على حقوق النشر.

وأودّ أخيراً، أن أتوجه بالشكر إلى الوكيلة ـ المشاركة والصديقة، سوزان ناصيف، التي جعلت بحماسها، هذا الحلم ممكناً، ذلك أنني ما كنت، من دونها، لأستطيع إشراك هؤلاء الناس، الذين أحمل لهم الإعجاب الشديد، بمكنونات قلبي.

پاولو كويلو



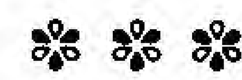
ملاحظات الكاتب

غدا الجنس البشري، منذ نشاته الأولى، محكوماً بان يسعى في إطار الانقسام الأبدي بين متضادين: الخير والشر. وغرض هذا الكتاب أن يتناول ذلك الموضوع مستعيناً، في بعض سياقات حبكته، بأساطير توضح مغازيه.

مع «الشيطان والآنسة بريم» أختتم ثلاثية «وفي اليوم السابع...» التي صدر منها «على نهر بييدرا، هناك جلستُ فبكيت» (١٩٩٥)، و«فيرونيكا تقرر أن تموت» (٢٠٠٠). تستحضر هذه الكتب الثلاثة ما حدث، خلال أسبوع، لأشخاص عاديين وجدوا أنفسهم، فجأة، في مجابهة مع الحب، والموت، والسلطة. لطالما اعتقدت أن التغييرات العميقة، سواء أكانت عند الكائن البشري، أم في المجتمع، إنما تحدث في فترات قصيرة جداً من الزمن. إذ تجبهنا الحياة، في ما لا نتوقّع أو نحتسب، بتحدٍّ يختبر شجاعتنا ورغبتنا في التغيير؛ لذا، فإن من غير المفيد أن نتظاهر بأن شيئاً لن يحدث، أو أن نتنصل قائلين بأننا لسنا مستعدّين بعد.

التحدّي لا ينتظر إطلاقاً. والحياة لا تلتفت إلى الوراء. أسبوع واحد هو فاصل من الزمن أكثر من كافٍ لنعرف: هل نتقبّل قدرنا أم نرفضه.

بوينس أيرس، آب/أغسطس ٢٠٠٠



١

كانت خمسة عشر عاماً قد انقضت تقريباً، والعجوز برتا تجلس، كل يوم، أمام باب منزلها. وكان سكان بسكوس قد أَلِفوا مثل هذا التصرّف الذي يصدر عن الأشخاص المسنّين: إنهم يحلمون بالماضي، وبعهد الشباب، أو يتأملون في عالم لم يعد عالمهم إطلاقاً، أو يبحثون عن موضوع يتحدثون به مع الجيران.

غير أن برتا كانت تجلس هناك لسبب وجيه. لقد أدركت أن انتظارها قد انتهى في ذلك الصباح، عندما شاهدت الغريب يصعَد في الطريق الوعرة، سائراً ببطء نحو الفندق الوحيد في القرية. ثيابه مهملة، وشعره أطول من المألوف، ولحيتُه نابتة منذ ثلاثة أيام: لم يكن كما كانت تتصوّره.

مع ذلك، فإنه جاء مصحوباً بظلّه: كان الشيطان برفقته.

قالت في سرّها: «كان زوجي على حق. لو لم أكن هنا، لما رآه أحد».

لم تكن بارعة في تقدير الأعمار. لعلّه بين الأربعين والخمسين. أسرّت إلى نفسها: «ما زال فتيًا». هكذا يقدّر المسنّون عادةً. وتساءلت: كم من الوقت سيبقى في القرية؟ لا شك في أنه لن يمكث وقتاً طويلاً، لأنه لا يحمل سوى حقيبة صغيرة على ظهره. من المحتمل ألا يبقى سوى ليلةٍ واحدة، قبل أن يستأنف طريقه إلى مصير

تجهله، ولا ترى نفسها مهتمةً به أبداً. مع ذلك، فإن تلك السنوات، التي قضتها جالسة على عتبة منزلها، لم تكن سنوات ضائعة، لأنها تعلّمت خلالها أن تتأمّل جمال الجبال، ذلك الجمال الذي لم تكن توليه اهتماماً منذ زمن طويل: لقد ولدت في هذا المكان، وكان هذا المشهد مألوفاً لديها.

دخل الرجل الفندق كما توقّعت. قالت، في سرّها، ربّما كان عليها أن تذهب لتكلّم الراهب عن هذه الزيارة غير المستحبّة، ولكن الراهب قد لا يستمع إليها، وقد يقول: «أنتم، المسنين، تتخيّلون أموراً غريبة».

«حسناً، لنذهب، الآن، ولنرَ ما الأمر. إن الشيطان ليس في حاجة إلى كثير من الوقت لكي يعيث فساداً، كإثارة العواصف، والزوابع، والانهيارات الثلجية التي تدمّر، خلال ساعات قليلة، أشجاراً غُرست قبل مئتي عام».

فجأة أدركت أن مجرّد علمها بالشرّ الوافد إلى بسكوس لا يغيّر شيئاً في مجرى الحياة. ثمّة شياطين تجيء وتذهب في كل لحظة، دون أن يؤدّي حضورها، بالضرورة، إلى زعزعة الأمور. إنها تطوف، باستمرار، عبر العالم لكي ترى ببساطة، ما الذي يجري، أو لكي تختبر هذه الروح أو تلك، ولكنها متقلّبة المزاج، متبدّلة الأغراض جزافاً، مسوقة، في وجه عام، بمتعة معركة على قَدْرٍ من الأهمية. وكانت برتا ترى أن بسكوس ليس فيها شيء مهمّ أو مميّز، من شأنه أن يجذب انتباه أيٍّ كان؛ فكم بالأحرى انتباه كائنٍ ذي شأن، وكثير المشاغل كرسول الظلمات.

حاولت التفكير بشيء آخر، ولكن صورة الغريب لم تكن تفارقها. ومالت السماء التي كانت زرقاء لتوّها، إلى التلبّد بالسحب.

«عندئذ سمعت قصفاً بعيداً للرعد، ثم تلاه قصف ثانٍ، وثالث، ورابع. تلك إشارة إلى هطل المطر، بلا ريب. ولكن ربما كانت هذه

القرقعة، إذا صدقت مأثورات القرية، تنقل صوت ربٍّ غاضبٍ يشكو أناساً ما عادوا يبالون بوجوده.

،عليّ أن أفعل شيئاً. فأخيراً جاء من كنت أنتظره،.

لهنيهات استغرقت في التفكير بكلّ ما كان يجري حولها. كانت الغيوم تتلبَّد فوق القرية، دون أن تُسمع أيُّ ضجة. لم تكن برتا تؤمن بالتقاليد والخرافات، خصوصاً تقاليد وخرافات بسكوس، الراسخة في الحضارة السلتية القديمة التي سادت هذا المكان، في الماضي.

ثم دوّى صوت الرعد، هذه المرة، قربها. نهضت، وحملت كرسيَّها، وهرعت إلى المنزل قبل أن يبدأ المطر بالهطل. ولكن، فجاة، خالج صدرها خوف لم تستطع فهمه. ما العمل؟

،يجب أن يغادر الغريب فوراً، تمنَّت ذلك في قرارة نفسها. كانت عجوزاً طاعنة لا تستطيع مساعدة نفسها، فكيف تستطيع مساعدة قريتها، أو بالأحرى مساعدة الرب القدير الذي لن يختار إلا شخصاً أصغر سناً إذا احتاج إلى المساعدة. لم يكن ذلك كله سوى هذيان. وكان زوجها العاطل عن أي عمل، يحاول أن يخترع أشياء ليساعدها على تزجية الوقت.

أمّا أنها شاهدت الشيطان، فلا يساورها، في شان ذلك، أيُّ شك. إنه هو بلحمه وعظامه، مرتدياً لباس رجل هرم.

❊ ❊ ❊

٢

كان الفندق، في الوقت نفسه، مخزناً للمنتوجات المحلية، ومطعماً يقدّم مآكل محلية، وحانةً يجتمع فيها سكان بسكوس لاجترار الموضوعات نفسها، مثل حالة الطقس، أو عدم اكتراث الشبّان للقرية. كانوا يرددون: «تسعة أشهر شتاء، وثلاثة أشهر جحيم». وكانوا مجبرين، جزاء ذلك، أن ينجزوا، في تسعين يوماً فقط، جميع أعمال الحقل: الفلاحة، والبذر، والانتظار، والحصاد، وخزن العلف، وتسمين المواشي، وجز الصوف. كلّ من عاشوا هنا، كانوا يدركون سعيهم الحثيث للعيش في عالمٍ منقضٍ. بيد أنه لم يكن من السهل قبول ما هو حتمي: فقد كانوا الجيل الأخير من المزارعين والرعاة الذين يقطنون هذه الجبال منذ قرون. قريباً، سوف تأتي الآلات، وتُربّى المواشي، في مكان آخر، بعلفٍ خاص. وقد تُباع القرية إلى شركة كبيرة مقرُّها في الخارج، لتحوّلها إلى مركز للتزلّج. لقد حصل ذلك في قرى أخرى في المنطقة، ولكن بسكوس صمدت، بالنظر إلى ما تدين به لماضيها، وللتقاليد التي رسّخها الأسلاف الذين أقاموا فيها وعلّموها أهمية الكفاح حتى النهاية.

بعدما قرأ الرجل الغريب بطاقة الفندق، قرّر كيفيّة ملئها. دلّت لهجته، أنه آتٍ من بلد ما في أميركا الجنوبية. اختار الأرجنتين

لأنه يحب فريق كرة القدم التابع لها. كان يتوجّب عليه أن يدوّن عنوانه، فكتب شارع كولومبيا، لأن من عادة الأميركيين الجنوبيين أن يتبادلوا التكريم بتسمية الأماكن المهمّة بأسماء بلدان المجاورة.

الاسم: اختاره اسم إرهابي مشهور عاش في القرن الماضي.

في أقل من ساعتين، كان سكان بسكوس، المئتان وواحد وثمانون شخصاً، قد عرفوا أن رجلاً غريباً، يدعى كارلوس، ولد في الأرجنتين، ويقيم في شارع كولومبيا الهادئ في بوينس أيرس، قد حضر إلى القرية. إنها إحدى ميزات القرى الصغيرة: لا ضرورة لأي جهد للتعرّف، سريعاً، إلى حياة كل شخص.

وتلك كانت، من ناحية أخرى، نيّة القادم الجديد.

صعد إلى غرفته وأفرغ حقيبة الظهْر: بعض الثياب، وآلة حلاقة كهربائية، وزوجان من الأحذية، وفيتامينات لتجنُّب البرد، ودفتر كبير للملاحظات، وإحدى عشرة سبيكة ذهبية تزن كل واحدة منها كيلوغرامين. وبسبب معاناته من حالة التوتر، ومن الصعود، والوزن الذي كان يحمله، سرعان ما غطّ في النوم؛ ولكن بعد أن اطمأن إلى تحصين باب غرفته بكرسي، وإن كان يعرف أنه يمكنه الوثوق بكل فرد من سكان بسكوس، المئتين وواحد وثمانين.

في اليوم التالي، تناول طعام الفطور، وترك ثياباً لدى موظف الاستقبال في الفندق الصغير لغسلها، وأعاد سبائك الذهب إلى محفظة الظهر، وتوجَّه نحو الجبل الواقع غرب القرية. لم يشاهد، في طريقه أحداً من السكان إلا امرأة عجوز تجلس أمام منزلها وترمقه بعين فضولية.

توغّل في الغابة، وانتظر قليلاً حتى تألف أذنه الأصوات الخفيفة الصادرة عن الحشرات، والعصافير، والريح التي تضرب الأغصان

العارية. كان يعلم، أنه في مكان كهذا، قد يكون عرضة للمراقبة رغماً عنه. لبث قرابة ساعة دون أن يتحرك.

بعد تثبته من أن مراقبه المحتمل لا بد أن يكون قد تعب وغادر دون أن يحصل على أي شيء يرويه، حفر حفرة قرب صخرة لها شكل Y، حيث خبّأ سبيكة ذهب. ثم صعد قليلاً إلى أعلى، وتريث ساعة، كما لو أنه يتأمل الطبيعة، مستغرقاً في تفكير عميق، لاحظ صخرة أخرى تشبه النسر، وحفر حفرة ثانية طمر فيها السبائك العشر الأخرى.

كان أول شخص شاهده، في طريق العودة، امرأة شابة تجلس على ضفة أحد الجداول العديدة، الموسمية، في المنطقة، المتشكلة جزاء ذوبان الثلوج. رفعت المرأة عينيها عن كتابها، لاحظت وجوده، واستأنفت القراءة. لا شك في أن أمها قد أوصتها بألا تخاطب غريباً على الإطلاق.

ومع ذلك، عندما يأتي الغرباء إلى مدينة جديدة، فإنهم يرون أن من حقهم عقد صداقة مع أشخاص مجهولين. لذلك اقترب وقال:

ـ أسعدتِ صباحاً. يبدو أن الطقس حارّ قياساً على هذه الفترة من السنة.

وافقت على قوله بإشارة من رأسها.

ولكنه ألحّ قائلاً:

ـ أودُّ أن أريك شيئاً.

ولمّا كانت حسنة التربية، فقد وضعت الكتاب، ومدت له يدها وعرّفت بنفسها:

ـ أدعى شانتال. في المساء أعمل في حانة الفندق حيث تقيم. وقد وجدت من المستغرب أنك لم تنزل لتناول طعام العشاء، لأن الفندق لا يعيش من إيجار الغرف فحسب، بل ممّا يستهلكه الزبائن. أنت تدعى كارلوس، تتحدّر من الأرجنتين، وتقيم في

شارع كولومبيا. لقد بات جميع سكان القرية على علم بذلك، لأن

أي رجل يأتي إلى هنا، خارج موسم الصيد، هو، دائماً، مثار فضول.

«إنه في حدود الخمسين له شعر رمادي، ونظرة من خَبِر الحياة».

تابعت قائلة:

ــ أما دعوتك، فإنّني أشكركَ عليها. إلا أنني شاهدت من قَبلُ طبيعة بسكوس من مختلف الزوايا الممكنة والمتخيَّلة. ربما كان من الأفضل أن أريك، أنا، أماكن لم يسبق لك أن شاهدتها، ولكني أحسب أنك مشغول جداً.

ــ عمري اثنتان وخمسون. وليس كارلوس اسمي الحقيقي. وكل المعلومات التي قدّمتها معلومات خاطئة.

لم تدر شانتال بما تجيب. أردف الغريب قائلاً:

ــ ليست بسكوس ما أريد أن أريك، بل هو شيء لم يسبق أن رأيته.

سبق لها أن قرأت الكثير من القصص عن فتيات يقبلن مرافقة رجل إلى وسط غابة، فيختفين من دون أثر. سيطر عليها الخوف لحظة. ولكنه خوف سرعان ما بدّده حسُّ المغامرة. وفي النهاية، لن يجرؤ هذا الرجل، على فعل شيء معها، لأنها أخبرته، لتوّها، بأن جميع من في القرية يعلمون بوجوده، وإن كانت المعلومات التي قدّمها ليست حقيقية. ثمّ إن الكوارث لا تقع إلا ليلاً، أقلّه في الروايات.

ــ من أنت؟ إذا كان ما قلته لي، الآن، صحيحاً، فاعلَمْ أنّ بمقدوري إبلاغ الشرطة أنك أعطيت هوية كاذبة.

ــ سأجيب عن جميع أسئلتك، ولكن تعاليْ معي أوّلاً. أريد أن أريك شيئاً. إنه على بعد خمس دقائق من هنا.

أخذت شانتال كتابها، وتنفست بعمق، وصلّت بصمت، في حين

كان يختلط في أعماقها الخوف والإثارة. ثم وقفت وتبعت الغريب. كانت على يقين بأن الأمر ليس إلّا خيبة أخرى في حياتها. كان ذلك يبدأ عادة بلقاء حافل بالوعود لينتهي، مرة أخرى، بصدى حلم لحبّ مستحيل.

تسلّق الرجل حتى بلغ الصخرة التي اتّخذت شكل Y. أشار إلى التراب الرطب، وطلب منها أن تبحث عمّا طُمر فيه.

قالت شانتال:

ـ ستتّسخ يداي. وكذلك ثيابي.

أخذ الرجل غصناً، وكسره، وقدّمه إليها لتنبش التراب به، فوجئت بهذه الحركة، إلى درجة قررت معها أن تفعل ما طلبه منها.

بعد دقائق قليلة ظهرت أمامها السبيكة الصفراء معفّرة بالتراب.

ـ كأنه ذهب.

ـ إنه ذهب، وهو لي. أرجو أن تعيدي طمره.

استجابت لرجائه. قادها الرجلُ إلى المخبأ الآخر. راحت تحفر من جديد، ولكنها ذهلت، هذه المرة، من كمية الذهب الماثلة أمام عينيها.

قال الغريب:

ـ وهذا أيضاً ذهب، وهو أيضاً لي.

كانت شانتال تهمّ بطمر الذهب تحت التراب، عندما طلب إليها ألاّ تفعل ذلك. جلس إلى صخرة، وأشعل سيكارة، ونظر إلى الأفق.

ـ لمَ أريتني ذلك؟

لم يقل شيئاً.

ـ من أنت حقاً؟ وماذا تفعل هنا؟ ولمَ أريتني ذلك، حين بإمكاني أن أخبر جميع الناس بما هو مخبوء في هذا الجبل؟

أجاب الغريب وعيناه شاخصتان إلى الأعالي، وكأنه غافل عن وجودها:

ـ إنه سيلٌ من الأسئلة.

ـ لقد وعدتني، إذا تبعتك، بأنك ستجيب عن أسئلتي.

ـ في البدء، لا تصدّقي الوعود، فالعالم مليء بها: ثراء، خلاص أبدي، حب سرمدي. يعتقد بعض الأشخاص بأنهم جديرون بإغداق الوعود. ويتقبل البعض الآخر أي شيء يضمن لهم أياماً أفضل. فالذين يعدون ولا يفون يشعرون بالعجز والكبت، وينسحب الأمر ذاته على من يتشبثون بالوعود.

لقد أصبح مهذاراً. راح يتكلّم عن حياته الخاصة، وعن الليلة التي غيّرت قدره، وعن الأكاذيب التي كان مُكرهاً على تصديقها، لأن الحقيقة لم تكن مقبولة. وكان ينبغي أن يتكلّم بلغةِ الفتاة، بلغةِ تستطيع أن تفهمها.

كانت شانتال تفهم، في مطلق الأحوال، كلّ ما يقوله. فهو، مثل جميع الرجال الناضجين، لم يكن يفكر إلا بممارسة الحبّ مع امرأة أصغر سناً. وكان يحسب، مثل أي كائن بشري، أن المال بإمكانه أن يشتري كل شيء. وكان موقناً، مثل أيِّ غريب، بأن الفتيات الريفيات، الصغيرات السن، على درجة من السذاجة تجعلهن يقبلن أي عرضٍ، حقيقي أو وهمي، شرط أن يعني ذلك مجرد فرصة للرحيل عاجلاً أم آجلاً.

لن يكون الأول، ولن يكون، للأسف، الأخير الذي يحاول إغواءها على هذا النحو المبتذل. ما كان يقلقها هو تلك الكمية من الذهب التي يقدّمها إليها. لم تكن تفكر إطلاقاً بأنها تساوي هذا القدْر. وذلك ما كان يفرحها ويخيفها في آن.

فردّت، في محاولة منها لكسب الوقت:

ـ إنني أكبر سنّاً من أن أومن بالوعود.

ـ ولكنك كنت دائمة الإيمان بها، ولا تزالين كذلك.

ـ إنك مُخطىء. أعرف بانني أعيش في الجنة. وقد سبق لي أن قرأت التوراة. ولا أريد أن أرتكب خطأ حواء التي لم تقتنع بما كان لديها.

لا ريب بان ذلك لم يكن صحيحاً. لقد بدأت، الآن، تشعر أنها مشغولة البال. فماذا إذا أهمل الغريب شانها وغادر؟ الحق يقال، كانت هي بالذات من نسج الشبكة، وأتاح لقاءهما في الغابة. لقد تعمّدت الجلوس في المكان الاستراتيجي الذي سيمرُّ به لدى عودته، وعلى نحو يمكن معه الحصول على شخص تبادله الحديث، وربما الحصول، أيضاً، على وعد تنتظر تحقيقه، أو على بضعة أيام تحلم فيها بحبٍ جديد ممكن، وبسفرٍ دون إياب، بعيداً عن الوادي الذي ولدت فيه. سبق أن عانت الخيبات. لكنها ثابرت، برغم كل شيء، على الاعتقاد بأنها قد تلتقي شريك حياتها. في البداية، كانت تودّ أن تختاره بنفسها، ولكنها تشعر الآن بأن الوقت يمر مسرعاً، وأنها مستعدة لترك بسكوس مع أول رجل راغب في اصطحابها، حتى إن كانت لا تشعر بشيء تجاهه. لا شك في أنها قد تتعلّم أن تحبه. فالحب، هو أيضاً، مسألة وقت.

قطع الرجل حبل أفكارها:

ـ هذا بالضبط ما أريد معرفته، أفي الجنة نعيش أم في الجحيم؟

وإذا به يقع في الشرك.

ـ في الجنة. لكن مَن يعشْ طويلاً في مكان مثالي لا بدّ أن يملّ.

ألقت بالصنّارة الأولى. كأنها قالت: «إنني حرة، إنني مستعدّة»، ليأتي سؤاله: «مثلك أنت؟».

سأل الغريب:

ـ مثلك أنت؟

ينبغي لها أن تكون حذرة. فمن كان شديد الظـمأ لا يجري نحو الينبوع، وإلاّ يجفل.

ـ لست أدري. تارة أقول نعم، وتارة أقول في سرّي إن قدري هنا، وأني لن أتمكن من العيش بعيداً عن بسكوس.

وكانت المرحلة الثانية التي ينبغي اجتيازها: تصنُّع اللامبالاة.

ـ حسناً، بما أنك لا تحكي لي شيئاً عن الذهب الذي أريتني إياه، فإنني أشكرك على النزهة. سأعود إلى نهري وكتابي.

ـ انتظري!

عضَّ الرجل على الصنَّارة.

ـ طبعاً سأشرح لك لما الذهب هنا وإلّا، لما جئت بك إلى هنا.

جنس، مال، سلطة، وعود... ولكن شانتال بدت كأنها تنتظر اكتشافاً مذهلاً. فالرجال يشعرون بمتعة غريبة لدى إحساسهم بأنهم متفوّقون، ذلك أنهم يجهلون أنهم غالباً ما يتصرَّفون، على نحو متوقَّع كليّاً.

ـ لا بدّ أنك خبرت الحياة كثيراً. لذا يمكنك أن تعلّمني الكثير.

تسير الأمور على نحو جيد. ولا بدّ من تخفيف حدّة التوتّر: إطراء صغير لئلّا تجفل الطريدة. إنها أولى القواعد.

ـ مع ذلك، لديك عادة سيئة جداً. فبدل أن تجيب عن سؤالٍ بسيط، تروح تلقي عِظاتٍ طويلةً حول الوعود، أو كيفية التصرُّف في الحياة. أكون في غاية السرور إذا أجبت عن السؤالين اللذين طرحتهما عليك: من أنت؟ وماذا تفعل هنا؟

أشاح الغريب نظره عن الجبال وحدّق إلى الفتاة الماثلة قبالته. لقد جابه، خلال سنين، شتى أنواع الكائنات البشرية، ويعرف، بما يشبه اليقين، ما الذي كانت تفكر فيه. إنها تظن، بلا شك، أنه جعلها

تشاهد الذهب لكي يؤثّر عليها بثرائه، وهي تحاول أيضاً أن تؤثّر عليه بشبابها ولا مبالاتها.

ـ من أنا؟ حسناً، لنقل بأني رجل يبحث عن حقيقةٍ ما. لقد نجحت في العثور على تلك الحقيقة نظرياً، ولكنني لم أطبّقها بعد.

ـ أي حقيقة هذه؟

ـ إنها عن طبيعة الإنسان. لقد اكتشفت أننا، إذا ابتُلينا بالغواية فسوف نستسلم بالتأكيد. والبشر مهيّئون، إذا اقتضى الأمر، لارتكاب الشرّ.

ـ أظن...

ـ ليس الأمر متعلقاً بما تظنين، ولا بما أظن، ولا بما نريد أن نظنّه، ولكن بما إذا كانت نظريتي صحيحة أم لا. تريدين أن تعرفي من أنا؟ أنا صناعيٌّ غنيٌّ جداً، ومشهور جداً. كنت ربّ عمل لآلاف من المستخدمين، وكنت قاسياً عند الضرورة، وطيّباً عندما أشاء. عايشت ظروفاً لا تخطر ببال أحد وسعيت، أكثر من المستطاع، إلى المتعة مثلما سعيت إلى المعرفة. أنا رجل عرف الجنة حين كان يعتبر نفسه مكبّلاً بجحيم العائلة والرتابة، وعرف الجحيم مذ استطاع التمتُّع بجنة الحرية الكاملة. هذا أنا، رجل كان طيّباً وشريراً طوال حياته، ولعلّني الشخص الأكثر أهلية للإجابة عن السؤال الذي طرحته على نفسي حول جوهر الكائن البشري، لذلك أنا هنا. إنني أعلم ما الذي تريدين الآن معرفته.

شعرت شانتال بأنها مشوّشة، وينبغي لها أن تستعيد تماسكها بسرعة.

ـ تحسب أني سأسألك: لمَ أريتني الذهب؟ في الواقع إن ما أريد معرفته حقاً هو لمَ يأتي صناعي غني ومشهور إلى بسكوس ليبحث عن جواب يمكنه العثور عليه في الكتب، أو في الجامعات، أو، ببساطة، باستشارة فيلسوف معروف؟

لفتته فطنة الفتاة. وهذا أمر جيّد، لقد اختار الشخص الملائم، على جري عادته.

ـ لقد جئت إلى بسكوس بقصدٍ معيّن. شاهدت، منذ زمن بعيد، مسرحية لكاتب يدعى دورينمات. إنك تعرفينه...

كان هذا الإضمار بمثابة استفزاز بسيط. فهذه الفتاة لم تسمع، إطلاقاً، بدورنمات، لكنها سوف تبدي تفهّماً، كأنّها تدرك الأمر حقاً.

قالت شانتال وهي تتصرَّف تماماً مثلما تصوَّر الغريب:

ـ أكمل.

ـ إني مسرور لأنك تعرفينه، ولكن اسمحي لي أن أذكُرك بالمسرحية التي أتحدّث عنها.

راح يزن كلماته بدقة، وكان حديثه يتّسم بحزم، لا بتهكّم، من كان يعرف، ضمناً، بأنها كاذبة.

ـ إمرأة تعود إلى المدينة بعدما جمعت ثروة، وهدفها الوحيد إذلال الرجل الذي كان قد تخلَّى عنها في صباها، وتدميره. ولم تكن حياتها، وزواجها، ونجاحها المالي، لتغدو ممكنة لو لم تكن مدفوعة بالرغبة في الثأر من حبّها الأول.

«هكذا اصطنعت، حينئذ، لعبتي الخاصة: أن أقصد مكاناً منعزلاً، حيث الجميع يتأمّلون الحياة بحبٍّ، وسلام، ورأفة، فأرى حينذاك إذا كنت أفلح في حملهم على انتهاك بعض الوصايا العشر».

حوّلت شانتال وجهها ونظرت إلى الجبال. كانت تعرف أن الغريب أدرك بأنها لم تسمع بذلك الكاتب، وتخاف الآن أن يطرح عليها أسئلة حول الوصايا العشر. فهي لم تكن، قطّ، قوية الإيمان، وليس لديها أيُّ فكرة حول هذا الموضوع.

أردف الغريب قائلاً:

ـ الجميع، في هذه القرية، شرفاء، ابتداءً بك، لقد جعلتك تشاهدين سبيكة الذهب التي قد تمنحك الاستقلال الضروري لكي ترحلي وتجوبي العالم وتفعلي ما تتوق لفعله كل فتاة في القرى الصغيرة المعزولة. إن السبيكة ستبقى في مكانها، وأنت تعلمين أنها لي، ولكن باستطاعتك أن تسرقيها إذا كنت ترغبين بذلك، وإذ ذاك تخلّين بوصية «لا تسرق».

توقفت الفتاة عن التحديق إلى الجبل، وركّزت نظرها على الغريب.

ـ أما السبائك العشر الأخرى، فهي تكفي سكان القرية جميعهم فلا يعودون بحاجة إلى العمل بقية حياتهم. ولم أطلب إليك أن تعيدي طمرها، لأنني سأنقلها إلى مكان لا يعرفه أحد سواي. وأريد، لدى عودتك إلى القرية، أن تقولي إنك شاهدت السبائك، وإني مستعد أن أهبها لسكان بسكوس إذا فعلوا ما لم يتخيله أحدهم قط.

ـ مثلاً؟

ـ لا يتعلق الأمر بمثلٍ، بل بشيء ملموس. أريد أن يخلّوا بوصية «لا تقتل».

ـ لمَ؟

انطلق السؤال مثل صرخة.

لاحظ الغريب أن جسد الفتاة بدا متصلّباً، وأنها قد تغادر في أي لحظة من دون أن تنتظر بقية الحكاية، لذا كان عليه أن يخبرها، بسرعة، ببقية خطته.

ـ سأبقى هنا، أسبوعاً واحداً. إذا وُجد أحد من أبناء القرية، في نهاية الأيام السبعة، ميتاً ـ قد يكون الميت شيخاً عاجزاً، أو مريضاً لا أمل بشفائه، أو مختلاً عالة على أحد، لا أهمية للضحية ـ فإن هذا المال سيعود إلى السكان، وأستنتج من ذلك أننا، جميعاً، أشرار.

وإذا سرقتِ أنت هذه السبيكة الذهبية، وصمدت الضيعة أمام الإغراء، أو العكس، فسوف أستنتج أن هناك صالحين وأشراراً، وهذا ما يخلق لي مشكلة خطيرة، لأن ذلك يعني أن ثمَّة صراعاً على الصعيد الروحي، وأن النصر فيه لهذا الفريق أو ذاك. هل تؤمنين بالله، بالماوراء، بالنزاعات بين الملائكة والشياطين؟

لزمت الفتاة الصمت. وفهم، هذه المرة، أنه طرح السؤال في اللحظة الحرجة، مجازفاً بأن توليه ظهرها قبل أن يختم. إنها هدنةُ سخريةٍ. ينبغي له أن يمضي مباشرة إلى الهدف.

ـ وإذا تركت القرية مع سبائكي الإحدى عشرة، في النهاية، فسيكون ذلك دليلاً أن كل ما أردت تصديقه هو مجرّد أكذوبة. وسوف أموت مع الجواب الذي لم أشأ سماعه، لأن الحياة ستغدو، بنظري، هشّة، إذا كنت محقّاً، وإذا كان العالم منذوراً للشر.

قال في سره: «وإن كان ألمي سوف يبقى هو ذاته».

امتلأت عينا شانتال بالدموع، بيد أنها وجدت في ذاتها القوة الكافية لأن تتمالك نفسها.

ـ لِمَ تفعل ذلك؟ ولِمَ قريتي بالذات؟

ـ «لا يتعلَّق الأمر بك ولا بقريتك. إنني لا أفكر إلا بنفسي: إن تاريخ إنسان واحد هو تاريخ البشر جميعاً. أريد أن أعرف: أصالحون نحن أم أشرار؟ إذا كنّا صالحين، فالله سيغفر لي كل ما فعلته، والشرَّ الذي أضمرته لأولئك الذين حاولوا تدميري، والقرارات الخاطئة التي اتّخذتها في اللحظات الأكثر أهمية، وهذا الاقتراح الذي عرضته عليك الآن، لأنه قد دفع بي إلى منحدر الظلمة.

«وإذا كنا أشراراً، فكل شيء مباح حينئذ. لم أتخذ قراراً خاطئاً، إننا مدانون سلفاً، ولا أهمية لما نفعله في هذه الحياة، لأن الخلاص موجود أبعد من أفكار الكائن البشري ومن أفعاله».

قبل أن تقرّر شانتال الذهاب، أضاف قائلاً:

ـ باستطاعتك أن تقرري عدم التعاون. في هذه الحالة سوف أكشف أمام الجميع بانني منحتك فرصة مساعدتهم، ولكنك رفضت. عندئذ سوف أعرض عليهم، شخصياً، الاقتراح. وإذا قرروا أن يقتلوا أحداً، فمن المحتمل أن تكوني، أنتِ، الضحية.

* * *



٣

ألف سكان بسكوس عادات الغريب بسرعة، كان يستيقظ باكراً. وبعد فطور وفير ينطلق نحو الجبال، برغم المطر الذي لم ينقطع عن الهطل منذ اليوم الذي أعقب مجيئه، والذي صار الآن عاصفة ثلجية تتخلّلها انفراجات قليلة. لم يكن يتناول طعام الغداء إطلاقاً. وكان من عادته الرجوع إلى الفندق في مطلع ما بعد الظهيرة، ويختلي في غرفته، لساعاتٍ من القيلولة، أو هذا ما كان يُظن.

ما أن يهبط الليل، حتّى يعود إلى تجواله، ولكن، هذه المرة، عند أطراف القرية. وكان أول من يجلس إلى مائدة العشاء باستمرار، ويعرف كيف ينتقي المآكل الأكثر بذخاً من دون أن يغفل عن احتمال استغلاله في الأسعار، ويختار، دائماً، النبيذ الجيد، دون أن يكون بالضرورة الأغلى ثمناً، ويدخن سيكارة. ثم ينتقل إلى المقصف، ذلك أنه حرص، منذ ليلته الأولى، أن يوطّد صلاته بالرجال والنساء الذين يرتادونه.

كان يهوى الاستماع إلى حكايات المنطقة، وحكايات الأجيال التي عاشت في بسكوس (ثمّة من يقول إن القرية كانت، في الماضي، أكثر أهمية مما هي الآن، والشاهد على ذلك أطلال المنازل الخربة عند أطراف الشوارع الثلاثة القائمة)، والاستفسار عن التقاليد والخرافات التي ما زالت راسخة في حياة سكان الأرياف، وعن التقنيات الجديدة في الزراعة وتربية المواشي.

وعندما كان يأتي دوره للحديث عن نفسه، يسرد حكايات متناقضة. فحيناً يقول إنه كان بحاراً، وحيناً آخر يتحدَّث عن مصانع كبيرة للأسلحة كان يديرها، أو يتحدَّث عن فترة تخلَّى فيها عن كل شيء مختلياً في أحد الأديرة، باحثاً عن الله.

لدى مغادرته المقصف، كان الزبائن يتناقشون، ويتساءلون عن حقيقة ما يرويه. وكان رئيس البلدية يرى أن الإنسان يستطيع أن يكون متعدِّد الأوجه في الحياة، على الرغم من أن سكان بسكوس لطالما أيقنوا أن مصيرهم هو ما كتب لهم منذ الطفولة. أما الكاهن فكان رأيه مغايراً، فهو يرى أن الوافد الجديد، كأيِّ شخص ضال، أو مضطرب النفس، إنما يقصد هذه الناحية سعياً منه للعثور على نفسه.

وبأية حال، كان الأمر الوحيد المؤكَّد أنه لن يمكث في القرية سوى أسبوع واحد. فقد روت صاحبة الفندق أنها سمعته، فعلاً، وهو يُخابر مطار العاصمة لتأكيد موعد سفره ـ وهنا المفارقة ـ إلى مدينة في إفريقية، وليس في أميركا الجنوبية. إثر المخابرة الهاتفية، أخرج من جيبه رزمة من الأوراق النقدية ليسدِّد ما يترتَّب عليه سلفاً.

قالت له صاحبة الفندق:

ـ لا، إنني أثق بك.

ـ أصرُّ على أن أدفع لك حالاً.

ـ إذن، استعمل بطاقة الاعتماد، كسائر الزبائن، واحتفظ بالنقود لنفقاتك الصغيرة خلال بقية سفرك.

وكادت تضيف: «قد يرفضون في إفريقية، بطاقات الاعتماد». ولكن قد يحرجها أن تكشف أنها كانت منصتة إليه وهو يتكلَّم على الهاتف، أو أنها تعتقد بأن بعض القارات أقلّ تقدّماً من غيرها.

شكرها الغريب على اهتمامها بأمر سفره، ولكنه طلب إليها بتهذيب، أن تقبل نقوده.

في الأمسيات الثلاث التالية، كان يسدّد نقداً ثمن الشراب الذي يقدّمه، مرّةً في كل أمسية، لجميع زبائن المقصف. وهذا أمر لم تشهده بسكوس من قبل، فضلاً عن أن الجميع نسوا الحكايات المتناقضة حول الرجل؛ وباتوا، من دون أحكام مسبقة، يرون فيه، شخصاً كريماً ودوداً، قادراً على التعامل مع أهل الريف، مثل تعامله مع سكان المدن الكبرى.

ومنذ ذلك الحين، استبدلت المناقشات الليلية موضوعها: عندما تتوقّف الحانة عن العمل، كان مدمنو السهر يرون أن رئيس البلدية على حق. فالوافد الجديد رجل غنيٌّ بالتجارب، قادر على إدراك معنى الصداقة الحقّة. إلا أنَّ آخرين كانوا يميلون إلى وجهة نظر الكاهن، أفليس هو العارف النفس البشرية على نحو أفضل؟ فالغريب، إذن، رجل وحيد، يبحث عن أصدقاء جُدد، وعن رؤية جديدة للحياة. وفي جميع الأحوال، فإن سكان بسكوس يتّفقون على القول إنه شخص لطيف، وكانوا مقتنعين بأنهم قد يفتقدون وجوده بينهم إثر رحيله المرتقب يوم الإثنين المقبل.

من جهة ثانية، كان الجميع يقدّرون كياسته التي أظهرها من خلال أمر مهم: فمن عادة المسافرين، خصوصاً إذا كانوا بمفردهم، أن يحاولوا التودّد لشانتال بريم، نادلة الحانة، أملاً بمغامرة عابرة أو شيء آخر؛ أما هذا الرجل، فلم يكن يخاطبها، إلا لطلب شراب، ولم ينظر إليها قط نظرة إغواء أو مراودة.

* * *

٤

في الليالي الثلاث التي أعقبت لقاءهما على ضفة النهر، لم تتمكن شانتال من النوم، كان هبوب العاصفة متقطعاً، مصحوباً بدويّ مرعب، فتصطفق مصاريع النافذة بعنف. وكانت شانتال، ما إن تغفو، حتى تستيقظ فَزِعة، مُتصبِّبة، برغم إيقافها التدفئة تقنيناً للكهرباء.

في الليلة الأولى، وجدت نفسها في حضرة الخير. وبين كابوسين لم تفلح في استذكارهما، كانت تصلّي وتطلب إلى الله أن يساعدها. ولم يخطر ببالها، ولو للحظة، أنها ستروي ما سمعته، وأنها ستكون رسولة الخطيئة والموت.

وجاءت اللحظة التي قالت، فيها، لنفسها إن الله أبعد من أن يسمعها، فشرعت تصلّي لجدتها التي توفيت منذ بعض الوقت، والتي ربّتها لأن أمها ماتت وهي تلدها. وكانت تتشبَّث بكل قواها بفكرة أن الشر كان قد راد هذه الناحية مرةً، في الماضي، ثمَّ غادرها إلى الأبد.

فبرغم كل ما تعانيه من مشكلات شخصية، كانت شانتال تعرف أنها تحيا بين أناس شرفاء يقومون بواجباتهم، ويسيرون مرفوعي الرأس، محترمين من المنطقة بأسرها. ولكن هذه لم تكن حالهم دائماً: فطوال أكثر من قرنين من الزمن، كانت بسكوس ملاذاً لأسوأ من في الجنس البشري. وكان الجميع، في ذلك العصر، يتقبّلون الوضع، زاعمين أنه ناجم عن اللعنة التي رماها بها السلتيون عقب هزيمتهم على أيدي الرومان.

إلى أن جاء اليوم الذي استطاع فيه رجل، بصمته وشجاعته،

رجل مؤمن بالبركات لا باللعنات، أن يحرّر شعبه. كانت شانتال تسمع قرقعة الدرف، وتتذكّر صوت جدتها وهي تروي لها حوادث الماضي:

«قبل سنين طويلة كان ناسك، عُرف فيما بعد باسم القديس سافان، يحيا في أحد كهوف هذه المنطقة. ولم تكن بسكوس، حينذاك، سوى مركز حدودي، يسكنها قطّاع طرق فازون، ومهرّبون، وعاهرات، ومغامرون يأتون للبحث عن شركاء، ومجرمون يلوذون بها بين جريمة وأخرى. والأدهى من ذلك كلّه أن آسيوياً، يدعى آهاب، كان مسيطراً على القرية وضواحيها، ويجبي ضرائب باهظة من المزارعين الذين يصرّون على العيش بكرامة. ذات يوم نزل سافان من كهفه، ووصل إلى منزل آهاب وطلب أن يبيت ليلةً عنده. انفجر آهاب ضاحكاً:

ـ ألا تدري أنني قاتل، وأنه سبق لي أن ذبحت العديد من الناس في بلادي، وأن حياتك ليس لها أيُّ قيمة عندي؟

«أجاب سافان:

ـ أعرف ذلك، ولكنني سئمت الحياة في ذلك الكهف، وأودُّ أن أقضي ليلة واحدة، هنا، على الأقل.

«كان آهاب عالماً بصيت القديس، الذي لا يقلّ شأناً عن صيته هو بالذات، وهذا أمر أزعجه جداً، لأنه يمقت أن يرى المجد موزّعاً بينه وبين شخص على هذا القَدْر من الهشاشة. لذلك قرّر أن يقتله في ذلك المساء لكي يُظهر للجميع أنه سيّد الناحية المطلق الوحيد.

«تبادلا بعض العبارات ولم يترك آهاب نفسه تتأثر بكلمات القديس. ولكنه رجل مرتاب؛ وهو لا يؤمن، منذ زمن طويل

بالخير. دلَّ سافان على حيث ينام. وبهدوء، ولكن بسحنة متوعُدة، راح يشحذ خنجره. وبعدما راقبه سافان، للحظات قليلة، أغلق عينيه ونام.

«قضى آهاب ليله وهو يشحذ خنجره. وعندما استيقظ سافان، مع إطلالة الصباح، وجد أنه يبكي بكاءً مزاً:

ـ لم تشعر بالخوف مني، ولم تبدِ رأياً فيّ. إنها المرّة الأولى التي يقضي فيها شخص ليلته عندي مطمئناً إلى أني أستطيع أن أكون رجلاً صالحاً، خليقاً بتقديم واجبات الضيافة لجميع من هم بحاجة إليها. ولأنك حسبتَ أني قادر على التحلّي ببعض الاستقامة، فقد تصرّفت على هذا الأساس.

«فهجر آهاب، من فوره، حياة الإجرام وسعى إلى إحداث تغييرات في المنطقة. وهكذا لم تعد بسكوس مركزاً حدودياً يعيث به اللصوص فساداً، بل غدت مركزاً تجارياً مهمًا بين بلدين.

«هذا ما ينبغي لك أن تعرفيه».

انفجرت شانتال منتحبة، وشكرت جدتها على إسماعها هذه الحكاية. كان شعبها طيباً، وباستطاعتها أن تثق به. ومع سعيها، من جديد، إلى النوم، انتهى بها الأمر إلى مداعبة فكرة راودتها، وهي الكشف عمّا تعرفه عن الغريب، لا لشيء بل، فقط، لكي تشاهد سمات الخيبة على وجهه حين سيقدم سكان بسكوس على طرده من القرية.

كعادته، جاء الغريب، مساء، إلى المقصف. وراح يتحدّث إلى الزبائن الحاضرين، مثله مثل أيّ سائح عادي، مصطنعاً الاهتمام بموضوعات تافهة، مثل جزّ صوف الغنم، والطريقة المعتمدة

لتجفيف اللحوم. وكان من عادة سكان بسكوس أن يتثبَّتوا من أن جميع الغرباء كانوا مفتونين بالحياة الصحية والطبيعية التي يحيونها. وبالتالي كانوا يرددون، بما يشبه التنافس، الحكايات ذاتها، من قبيل: «آه! ما أمتع العيش بعيداً عن الحضارة الحديثة!»، في حين أن كلاًّ منهم كان يفضّل، من كل أعماقه، أن يكون بعيداً جداً عن هذا المكان، بين السيارات التي تلوّث الجو، وفي الأحياء التي يسودها عدم الأمان، لأن المدن الكبرى، ببساطة، كانت دائماً بمثابة مرآة القبّرات[1] لسكان الأرياف. ولكنهم كانوا، في كل مرة يطل فيها أحد الزوار، يجتهدون كي يبرهنوا له، بالأقوال الرنّانة، والأقوال فقط، على روعة الحياة في جنّة ضائعة، محاولين بذلك إقناع أنفسهم تحديداً بمعجزة ولادتهم هنا، متناسين أنَّ لا أحد، من زبائن الفندق، قرَّر، حتى الآن، أن يتخلّى عن كل شيء لكي يقيم في بسكوس.

كانت الأمسية تتّسم بالحيوية، ولكنها تعكّرت قليلاً جراء ملاحظة كان حرياً بالغريب ألاَّ يُبديها:

ـ هنا، الأطفال حسنو التربية جداً، وذلك على العكس من سائر الأماكن التي أعرفها، إذ لم أسمعهم، يوماً، يتصايحون في الصباح.

خيّم الصمت، فجأةً، في الحانة، لأنه لم يكن، هناك، أطفال في بسكوس. ولكن بعد لحظات قليلة، طرأت على بال أحد الحاضرين فكرة جيدة بأن يسأل الغريب: هل أعجبه الطعام المحلّي الذي تناوله؟ وهكذا عاد الحوار إلى مجراه الطبيعي، وهو يدور، باستمرار، حول محاسن الريف وعيوب المدن الكبرى.

بمضي الوقت، كانت شانتال تزداد شعوراً بالقلق، لأنها تخشى أن يفاتحها الغريب بموضوع لقائهما في الغابة. غير أنه ما كان

---

(١) Miroir aux alouettes: آلة لاجتذاب القبرات والعصافير.

ليختلس نظرة «إليها»، أو يكلّمها إلا ليطلب شراباً له وللحاضرين يسدّد، كعادته، ثمنه نقداً.

ما إن غادر الزبائن الحانة، حتى صعد الغريب إلى غرفته. نزعت شانتال مئزرها، وأشعلت سيكارة أخذتها من علبة منسية على إحدى الطاولات. وقالت لصاحبة المكان بأنها ستنظّف وترتّب كل شيء غداً، لأنها مرهقة بعد أرقها في الليلة الماضية. لم تعترض المرأة، فارتدت شانتال معطفها ودلفت إلى هواء الليل البارد.

أثناء سيرها إلى غرفتها القريبة، والمطر يصفع وجهها، كانت تردّد في سرّها أن الغريب ربّما أراد أن يلفت انتباهها، حين عرض عليها اقتراحه المشؤوم، ولم يملك لذلك سوى هذا الأسلوب الشاذ.

ولكنها تذكَّرت الذهب: لقد شاهدته، شاهدته بأمّ عينيها.

ربما لم يكن ذلك ذهباً حقاً. لكن حالة الإرهاق تمنعها من التفكير. وما إن دخلت غرفتها، حتى تعرَّت واندست تحت الأغطية.

في الليلة الثانية، وجدت شانتال نفسها في حضرة الخير والشر. كانت تغطُّ في نوم عميق، خلوِ من الأحلام، ولكنها استيقظت بعد ساعة. كان كل شيء من حولها هادئاً: لا قرقعة مصاريع، ولا أصوات طيور ليلية. ليس ما يدلُّ على أنها من بين الأحياء.

تقدّمت نحو النافذة وراقبت الشارع المقفر، الرذاذ المنهمر، الضباب الصفيق الذي يحجب كل شيء إلا وميض لافتة الفندق. لم يسبق إطلاقاً أن بدت لها القرية على هذه الحالة من الكآبة. إنها تعرف جيداً هذا الهدوء في قرية منعزلة، والذي لا يعني أبداً السلام والطمانينة، بل الغياب الشامل لأي جديد يُروى.

تطلّعت إلى الجبال؛ لم تستطع رؤيتها، لانخفاض الغيوم كثيراً.

ولكنها تعلم أنَّ، في مكان ما هناك، ثمة سبيكة من الذهب

مطمورة: أو ثمة، بالأحرى، شيئاً أصفر اللون، له شكل قرميدة، طمره رجل غريب في التراب. لقد دلَّها على المكان الصحيح، وكان على وشك أن يطلب إليها إخراج المعدن والاحتفاظ به.

عادت إلى النوم. وبعد أن تقلَّبت غير مرة، نهضت من جديد وذهبت إلى غرفة الاستحمام، تفحَّصت، عبر المرآة، جسدها العاري، قلقة إلى حدٍّ ما: ألن يفقد، قريباً، بعض جاذبيته؟ وإذ عادت إلى السرير، شعرت بالندم لأنها لم تحتفظ بعلبة السكائر المنسية على الطاولة، ولكنها تعلم أن صاحبها سيعود لأخذها، وهي لا تريد أن تفقد ثقة الناس بها. كانت بسكوس محكومة بذاك النوع من الدلالات: بقية علبة سكائر لها صاحبها، زر سقط من سِترة يجب الاحتفاظ به إلى أن يأتي من يطلبه، كل سنتيم يجب أن يعاد، ولا سبيل إلى تدوير المبلغ المتوجب. إنه مكان ملعون، حيث كل شيء فيه متوقَّع، ومنظَّم، وله وظيفته.

مع إدراكها أنها لن تستطيع العودة إلى النوم، حاولت أن تصلّي من جديد، مستحضرة جدتها. لكنَّ مشهداً ما بقي محفوراً في ذاكرتها: الحفرة الفاغرة، والمعدن الأصفر المعفَّر بالتراب، الغصن في يدها كأنه عصا حاجٍّ على وشك الرحيل. تناعست، وفتحت عينيها غير مرة. ولكن الهدوء بقي شديد الأثر، فيما المشهد ذاته يثرى، دونما توقف، في رأسها. ومذ تسلَّل أول خيط للفجر، عبر النافذة، نهضت وغادرت الغرفة.

من عادة سكان بسكوس أن يستيقظوا مع بزوغ الفجر. غير أنها سبقتهم هذه المرة. سارت في الشارع المقفر، ملتفتة إلى الوراء مراراً لكي تتأكد أن الغريب ليس في إثرها، لكنها لا تبصر إلا لأمتار قليلة بسبب الضباب. كانت تتوقف، بين الحين والآخر،

لتنصت إلى وقع خطوة ما، ولكنها لا تسمع سوى قلبها المضطرب.

توغلت داخل الغابة، وبلغت الكتلة الصخرية التي اتّخذت شكل Y، مع شعورها، مجدّداً، بالخوف من أن ينقضّ عليها. التقطت الغصن الذي تركته بالأمس. وحفرت، بالضبط، في المكان الذي دلّها الغريب عليه، ومدّت يدها داخل الحفرة، لتخرج السبيكة. أرهفت السمع: الغابة غارقة في صمت غامر، كأنّ وجود هذا الشيء الغريب قد استبدّ بها، فأفزع الحيوانات وجمّد أوراق الشجر.

رازت السبيكة. إنها أثقل مما كانت تتصوّر، فركتها، وشاهدت بصمتيْ خاتَم ومجموعة من الأرقام لم تدرك معناها.

كم يبلغ ثمنها يا ترى؟ لم تكن تعرف ذلك بدقّة. لكنها، كما أسرّ إليها الغريب، كافية لصرفها عن كسب المال بقية حياتها. أمسكت حلمها بين يديها، إنه شيء طالما رغبت فيه، وها هي المعجزة تضعه في متناولها. هذا هو الحظ الذي يحرّرها من أيام بسكوس ولياليها الرتيبة، ومن هذا الفندق الذي بدأت العمل فيه منذ بلغت سن الرشد، ومن الزيارات السنوية التي يقوم بها الأصدقاء والصديقات الذين ذهبوا بعيداً للدراسة ليصبحوا ذوي شأن في الحياة، ومن جميع حالات الغياب التي أَلِفتها لرجال عابرين يغدقون عليها الوعود ثم يغادرون في اليوم التالي من دون كلمة وداع، ومن كل هذه الأحلام المجهضة التي هي نصيبها من الحياة. إن هذه اللحظة، هنا في الغابة، هي اللحظة الأهم في حياتها.

لطالما كانت الحياة، جائرة حيالها: أب مجهول الإقامة، وأم قضت أثناء الولادة تاركةً لها شعوراً بالذنب، وجدّة قروية كانت تعيش من أعمال الخياطة وتدّخر بعض الدراهم القليلة لكي تتمكّن من تلقين حفيدتها، القراءة والكتابة. كانت شانتال تحلم كثيراً: لطالما تخيّلت أنها قد تستطيع اجتياز العقبات؛ وتجد زوجاً؛ وتحظى بعمل في مدينة كبيرة؛ ويكتشفها أحد الباحثين عن المواهب جاء ليستريح في هذا الطرف من العالم، فتغدو ممثلة في المسرح؛ وتؤلّف

كتاباً قد يحظى بنجاح كبير، وتقف أمام عدسة مصوّر محترف، وتحظى بحفاوة الحياة الحقّة.

في كل نهار، كان الانتظار. وفي كل ليلة حمّى لقاء ذلك الذي يقدّرها حق قدرها. كل رجل في مخدعها، كان يمثّل الأمل بالرحيل غداً، واللاعودة لمشاهدة هذه الشوارع الثلاثة، وهذه المنازل ذات الجدران العارية، والسقوف القرميدية، والكنيسة والمقبرة المهملة، والفندق وأطعمته المحلية التي يتطلّب إعدادها أسابيع، لتباع، في النهاية، بسعر سلعة عادية.

ذات يوم، راودها خاطر بأن السلتيين، سكان هذا المكان القدامى، خبّأوا كنزاً خرافياً، وأنها قد تجده ذات يوم. كان ذلك بالتأكيد أكثر أحلامها عبثية وتوهماً.

فإذا بلحظة الخلاص قد حانت، ههنا. إنها تمسك بيدها السبيكة الذهبية، وتداعب الكنز الذي ما كانت تؤمن بوجوده إطلاقاً. إنه تحرُّرها النهائي.

فجأة استبد بها الذعر: إن سانحة الحظ الوحيدة في حياتها قد تتبدَّد على الفور: إذ يكفي أن يغيِّر الغريب رأيه ويقرّر الذهاب إلى مدينة قد يلتقي فيها امرأة أكثر أهلية لمشاركته حياته. لذلك من الأفضل ألاَّ تتردَّد، بل ينبغي أن تقف على قدميها، وتعود إلى غرفتها، حيث تضع القليل الذي تملكه في حقيبتها، ثمّ ترحل...

إنها ترى نفسها، منذ الآن، وهي تهبط الشارع المنحدر. وعند طرف القرية تستوقف سيارة خاصة لنقلها، فيما الغريب يقوم بنزهته الصباحية ويكتشف أن ذهبه قد سُرق منه. وإذ تبلغ هي أقرب مدينة، يعود هو أدراجه إلى الفندق لإبلاغ الشرطة.

تتقدّم إلى شباك التذاكر في محطة القطارات، تقطع بطاقة إلى أبعد الوجهات الممكنة. وفي اللحظة ذاتها يطوّقها شرطيان، ويطلبان إليها، بلطف، أن تفتح حقيبتها. وما إن يشاهدا محتواها حتى يتبدّد لطفهما. إنها المرأة المعنيّة بالشكوى التي قُدّمت قبل ثلاث ساعات.

في دائرة الشرطة، يكون على شانتال أن تختار: إما أن تقول الحقيقة التي لن يصدقها أحد، وإما أن تعترف، ببساطة، أنها شاهدت الأرض مقلوبةً، فقررت أن تحفر، ووجدت السبيكة. منذ عهد قريب، صرف أحد الباحثين عن الكنوز، التي خبأها السلتيون، الليل برفقتها. وقد أخبرها أن قوانين البلاد واضحة: إن له الحق بأن يحتفظ بما يجده، باستثناء اللقى الأثرية التي ينبغي له أن يبلّغ عنها ويسلّمها للدولة. إن سبيكة ذهبية، موسومة بخاتم شرعي، ليس لها أي قيمة تراثية. فمن يجدها يصير هو مالكها.

كانت شانتال تقول في سرّها: «إذا اتّهمتني الشرطة بسرقة السبيكة من ذلك الرجل، فسوف أريهم التراب على المعدن، وأثبت بذلك حقّي المشروع».

سوى أن الحكاية، في غضون ذلك، تكون قد شاعت بين أهل بسكوس الذين افتروا عليها من قبل بدافع الحسد أو الغيرة، فيزعمون أن فتاةً تضاجع الزبائن قد تسوّل لها نفسها سرقة بعضهم.

وقد ينتهي الفصل على نحو محزن: تتمُّ مصادرة السبيكة الذهبية بانتظار أن تبتَّ العدالة في الأمر. وبما أن شانتال لا تستطيع دفع أتعاب محامٍ، يُنتزع منها ما وجدته، فتعود إلى بسكوس، مهانةً، محطمةً. وتغدو عرضة لتعليقات لن تنتهي بمضي سنوات طويلة.

النتيجة: إن أحلامها بالثراء سوف تتبدّد، وينال من سمعتها سوء فادح.

ثمّة منوال آخر لتصوُّر مجرى الأمور: وهو أن الغريب كان صادقاً فيما قاله. فإذا كانت شانتال قد سرقت السبيكة ورحلت وليس في نيتها العودة، ألا تكون بذلك قد أنقذت بسكوس وسكّانها من شقاء عظيم؟

إلاّ أنها، حتى قبل أن تغادر غرفتها وتبلغ الجبل، كانت مدركة عجزها عن القيام بهذه الخطوة. لماذا إذن، وفي اللحظة التي كان من شأنها أن تغيّر حياتها كلياً، شعرت بمثل ذلك الخوف؟ أليس صحيحاً، في آخر الأمر، أنها كانت تضاجع مَنْ شاءت من الرجال؟ أليس صحيحاً أنها كانت تستغل فتنتها أحياناً، لكي تحصل من الزبائن على إكراميات سخية؟ ألا تكذب من حين لآخر؟ أما كانت تشتهي لنفسها مصير بعض من عرفتهم ممّن غادروا القرية وباتوا لا يعودون إليها: إلاّ في أعياد نهايات العام.

ضغطت السبيكة، الماثلة بين يديها، بكل قواها، ونهضت. لكنها سقطت، فجأة، على ركبتيها، ضعيفةً ويائسة. وأعادت السبيكة إلى الحفرة وغطّتها بالتراب. لا، لا تستطيع أخذها. لم يكن ذلك بدافع الاستقامة، بل لأنّها شعرت فجأة بالخوف. وأدركت للتوّ أن هناك أمرين يحولان دون تحقّق أحلام المرء: أن يعتقد بأنها غير قابلة للتحقّق، أو أن يرى تلك الأحلام، متى دارت عجلة القدر على نحو مباغت، تستحيل في لحظة لا يتوقّعها، أحلاماً ممكنة. والحق أنّه، في مثل هذه الحال، ينبثق الخوف من أن نسلك درباً لا نعرفُ إلى أين يفضي، في حياة منسوجة من تحديات مجهولة، واحتمال أن تختفي الأشياء التي أَلِفناها إلى الأبد.

إن البشر يريدون تغيير كل شيء، ويتمنّون، في الوقت عينه، أن يبقى كلُّ شيء على منواله. لم تكن شانتال تفهم هذه المعضلة، ولكن ينبغي لها الآن أن تخرج منها. ربما كانت أسيرة بسكوس أكثر ممّا ينبغي، وكل حظ بالفوز كان عبئاً بالغ الثقل عليها.

إنها موقنة أن الغريب لم يعد يعتمد عليها، ربّما قرّر، في هذا اليوم بالذات، اختيار شخص آخر. لكن جبنها أكبر من أن تغيّر قدرها.

يداها اللتان لمستا الذهب يجب أن تقبضا الآن على المكنسة،

والإسفنجة، والخرقة. أدارت شانتال ظهرها للكنز، وتوجهت إلى الفندق، حيث كانت صاحبته تنتظرها، غاضبة قليلاً، لأن النادلة وعدتها بتنظيف البار قبل أن يستيقظ أيّ من زبائن الفندق.

لم يتأكد خوف شانتال: فالغريب لم يغادر. كان في مقصف الفندق، أكثر سحراً من أيّ وقت مضى، منصرفاً إلى سرد حكاياتٍ قريبة من الصحة، إلاَّ أنها مَعيشة، على نحو مكثّف، في مخيّلته. هذه المرة، أيضاً، لم تلتق نظراتهما، على نحو عادي، إلا لدى سداده ثمن الشراب الذي قدَّمه إلى جميع الزبائن الآخرين.

كانت شانتال مرهقة. لم يكن لديها سوى رغبة واحدة: أن يغادر الجميع باكراً. لكن الغريب كان مستثار القريحة على نحو خاص، ولا يكفّ عن سرد قصص كان الآخرون يستمعون إليها بانتباه واهتمام، وبذلك الاحترام المقيت ـ بذلك الخضوع، على الأصح ـ الذي يبديه الريفيون حيال القادمين من المدن الكبيرة، لأنهم يعتقدون أنهم أوسع ثقافة، وأحسن نشأة، وألمع ذكاء، وأكثر تحضراً منهم.

أسرّت شانتال إلى نفسها: «يا للأغبياء! إنهم لا يدركون البتة قيمة أنفسهم؛ إنهم لا يعرفون أنه، في كل مرة يُدني فيها شخص ما، في مكان ما، شوكة من فمه، إنما يفعل بفضل أناس من طينة أهل بسكوس الذين يكدّون من الصباح حتى المساء، بلا كلل، حرفيين كانوا، أم مزارعين، أم مربّي مواشٍ. إنهم ضروريون للعالم أكثر من كل سكان المدن الكبيرة. ومع ذلك يتصرفون ـ أو يعتبرون أنفسهم ـ مثل كائنات دنيا، معقَّدة وغير مفيدة».

مع ذلك، كان الغريب مهيَّئاً لكي يظهر أن ثقافته تساوي أكثر من جهد هؤلاء الذين يحيطون به. أشار بسبَّابته إلى لوحة فنية معلّقة على الجدار:

ـ هل تعلمون ما هذه؟ إنها إحدى اللوحات الأكثر شهرة في العالم: العشاء الأخير ليسوع مع تلامذته، رسمها ليوناردو دافنشي.

قالت صاحبة الفندق:

ـ يدهشني أن تكون مشهورة، لقد اشتريتها بسعر رخيص.

ـ إنها مجرد نسخة. فاللوحة الأصلية موجودة في كنيسة بعيدة جداً من هذا المكان. ولكن هناك قصة خرافية حول هذه اللوحة، لست أدري إذا كنتم ترغبون في سماعها.

وافق جميع الزبائن بإشارة من الرأس. ومرة أخرى شعرت شانتال بالخجل، لأنها في الحانة، تستمع، مكرهةً، إلى هذا الرجل وهو يستعرض معلومات لا فائدة فيها ليُظهر، فقط، أنه أوسع معرفة من الآخرين.

«عندما فكَّر ليوناردو دافنشي برسم هذه اللوحة اصطدم بصعوبة كبيرة: يجب أن يرسم الخير من خلال صورة يسوع، والشر، مشخصاً بيهوذا، التلميذ الذي قرر أن يخون أثناء العشاء. فتوقف عن العمل، ومضى للبحث عن نماذج مثالية.

«وذات يوم عندما كان يستمع إلى حفلة موسيقية تقدّمها جوقة، لمح في وجه أحد المنشدين الصورة الكاملة للمسيح، فدعاه إلى مرسمه، حيث جعله موديلاً، وقام بالعديد من الدراسات والمخططات الإجمالية.

«بمضي ثلاث سنوات. كانت اللوحة قد أصبحت ناجزة تقريباً. ولكن ليوناردو لم يكن قد وجد بعد النموذج الملائم ليهوذا، وكان الكاردينال المسؤول عن الكنيسة، حيث كان يعمل، يحثّه على إنجاز الجدارية بأسرع وقت.

«بعد أيام من البحث، اهتدى الرسام إلى شاب بدا شيخاً قبل أوانه، مرتدياً أسمالاً، متعتعاً من السكر، مرتمياً في مجرى ماء. فطلب إلى مساعديه أن ينقلوه مباشرة إلى الكنيسة، لأنه لم يعد يملك الوقت ليقوم برسوم إعدادية (croquis).

«ولدى بلوغهم الكنيسة، جعل المساعدون الشاب في وضعية الواقف، ولم يكن الشاب يدرك ما يحصل له. وهكذا استطاع ليوناردو دافنشي نسخ سمات الكفر، والخطيئة، والأنانية، النافرة بقوة على ذلك الوجه.

«وعندما أنجز الرسام اللوحة، فتح المتشزد عينيه، بعدما تبدّدت أبخرة الثمالة، وافتتن بروعة اللوحة، فصاح بصوت مشدوه حزين:

ـ سبق لي أن شاهدت هذه اللوحة!

«سأل ليوناردو دافنشي، مندهشاً جداً:

ـ متى؟

ـ منذ ثلاث سنوات، قبل أن أفقد كل ما لديَّ. ففي ذلك الوقت كنت منشداً في جوقة، وحقّقت كل أحلامي، ودعاني الرسام لأكون موديلاً، لكي يرسم وجه يسوع».

لاذ الغريب بصمت طويل، كان يتكلّم دون أن يحوّل نظره عن الكاهن الذي كان يحتسي الجعة. ولكن شانتال كانت تعرف أن أحاديثه كلّها موجهةٌ إليها. ثمّ أردف قائلاً:

«بمعنى آخر، إن للخير والشر وجهاً واحداً. كل شيء يتعلّق باللحظة التي يلتقيان فيها بالكائن البشري، وهو في طريقه».

وقف، وقال إنه متعب. ثم حيَّا الحاضرين وصعد إلى غرفته. غادر الزبائن الحانة بدورهم، بعد أن ألقوا نظرة على النسخة الرخيصة للوحة مشهورة، وكل منهم يسأل في سرّه في أي فترة من حياته تعرض للمسة من ملاك أو من شيطان؟ وعلى الرغم من عدم اتفاقهم حول هذا الأمر، فإنهم، جميعاً، استنتجوا أن ذلك حصل لبسكوس قبل أن يُقدم آهاب على إشاعة السلام في المنطقة. ومنذ ذلك الحين، لم يحدث ما يكسر رتابة الأيام.

***

٥

كانت شانتال، المنهوكة التي تعمل كإنسان آلي، تدرك أنها وحدها من يفكِّر على نحو مغاير، لأنها شعرت بيد الشيطان المُغوية تداعب وجهها بإلحاح. «إن للخير والشر وجهاً واحداً، وكل شيء يتعلق باللحظة التي يلتقيان فيها بالكائن البشري وهو في طريقه». كلام جميل، وربَّما كان حقّاً. ولكن ليس لها، في هذه اللحظة، إلا أن تذهب لتنام، وتكفَّ عن إمعانها في تعذيب نفسها.

أخطأت وهي تردّ لأحد الزبائن بقية حسابه، نادراً ما يحصل لها مثل هذا الأمر. أفلحت في الحفاظ على وقارها وهدوء أعصابها حتى استأذن الكاهن ورئيس البلدية مغادرين، وهما دائماً آخر من يغادر الحانة. أغلقت الصندوق وجمعت أغراضها، ثمَّ ارتدت سترتها، الرخيصة الثمن والتي لا تناسبها، وقصدت غرفتها، كما تعوّدت أن تفعل كل مساء منذ سنوات عديدة.

في الليلة الثالثة، وجدت نفسها، في حضرة الشر. وقد تمثَّل لها في هيئة عياء شديد مصحوب بأدوار حمّى. غرقت في حالة بين الوعي واللاوعي، دون أن تستطيع رقاداً، وكان في الخارج، ذئب لا يكفُّ عن العواء. بعد لحظة، أيقنت أنها تهذي: بدا لها أن الذئب قد دخل غرفتها وخاطبها بلغةٍ لا تفهمها. حاولت، في ومضة صفاء ذهني، أن تنهض وتذهب إلى مقرّ كاهن الرعية، لكي يأتيها بطبيب لأنها مريضة، مريضة جداً. ولكن ساقيها خارتا، وأدركت

أنها لن تستطيع السَير خطوة واحدة. حتى لو تحاملت على نفسها، فلن تستطيع بلوغ مقر كاهن الرعية. حتى وإن بلغته، فسوف ينبغي لها أن تنتظر الكاهن حتى يستيقظ، ويرتدي ثيابه، ويفتح لها الباب. وفي غضون ذلك، قد تتفاقم الحمى، وقد تقتلها، هناك بالذات، على بعد خطوتين من الكنيسة، في ذلك المكان المعروف بأنه مقدّس.

«هكذا يغدو دفني سهلاً، سوف أموت عند باب المقبرة».

بقيت شانتال تهذي طوال الليل، ولكنها شعرت بأن الحمى تفقد من شدّتها، كلّما انسلّت، أشعة النهار الأولى إلى غرفتها. وعندما استعادت قواها أصبح بمقدورها، أخيراً، أن تنعم بنوم هادئ لفترة طويلة. أيقظها صوت بوق سيارة، مألوف: إنه الفرّان الجوّال الذي وصل إلى بسكوس في موعد الفطور.

قالت لنفسها إنها ليست مضطرة إلى الخروج لكي تشتري خبزاً، فهي مستقلة، بمقدورها أن تنام إلى الضحى، ولا تعمل إلاّ في المساء. ولكن ثمّة شيئاً فيها قد تغيَّر: إنها في حاجة إلى الاتصال بالناس حتى لا تصاب بالجنون. ترغب في الانضمام إلى أولئك الذين يجتمعون حول الشاحنة الصغيرة الخضراء، سعداء باقتحام هذا النهار الجديد، وهم واثقون أن لديهم ما يأكلون، وما يفعلون.

انضمت إليهم، حيَّتهم، وسمعت بعض الملاحظات من نوع: «تبدين متعبة»، أو «هل هناك ما يزعجك؟». جميعهم لطفاء، متضامنون، مستعدون للمساعدة، أبرياء وبسطاء في كرمهم. أما هي، فتخوض روحها حرباً لا هوادة فيها، وتتخبَّط في أحلامها بالثروة والمغامرات والسلطة، فريسة الخوف. لا ريب في أنها كانت ترغب كثيراً أن يشاركها الآخرون سرّها. ولكن، حتى لو اعترفت لشخص واحد بذلك السر، فإن القرية بأسرها سوف تعرفه قبل اعتدال الصباح. من الأسلم، إذن، أن تكتفي بشكر أولئك الذين يُبدون اهتمامهم بصحتها، وأن تنتظر ريثما تتّضح أفكارها قليلاً.

ـ لا شيء مهماً. ثمّة ذئب يعوي طوال الليل، فأرّقني صوته.

قالت صاحبة الفندق، الموجودة هي أيضاً، في المكان:

ـ ذئب؟ لم أسمعه.

وأوضحت المرأة التي تصنع منتوجاتٍ تُباع في الدكان الصغير الملحقِ بالحانة:

ـ منذ شهور لم نسمع أيَّ ذئب يعوي في هذه المنطقة. فمن المؤكد أن الصيادين قضوا على جميع الذئاب. من المؤسف أن ذلك يلحق الضرر بأعمالنا. إذا اختفت الذئاب، فلن يأتي الصيادون، لينفقوا مالهم، لأنهم لن يستطيعوا، والحالة هذه، أن يشاركوا في مباراة تافهة بلا جدوى.

فعقّبت صاحبة الفندق:

ـ لا تقولي أمام الفرّان أن الذئاب ستختفي، لأنه يعتمد على تردّد الصيادين إلى المنطقة، وأنا كذلك.

ـ إني واثقة أنني سمعت عواء ذئب.

أما زوجة رئيس البلدية التي لم تكن تحب شانتال، ولكنَّ تهذيبها حملها على إخفاء مشاعرها، فقد قالت مفترضة:

ـ إنه، من دون شك، الذئب الملعون.

فردّت صاحبة الفندق بصوت مرتفع:

ـ الذئب الملعون لا وجود له. لعله ذئب معتاد، وقد صار بعيداً جداً الآن.

لكن زوجة رئيس البلدية قالت، محتجّةً:

ـ على كل حال، ما من أحد سمع ذئباً يعوي هذه الليلة. إنك تُشغّلين هذه الآنسة في ساعات غير ملائمة. إنها مرهقة، وبدأت تصاب بالهلوسة.

تركت شانتال المرأتين تتناقشان، وذهبت إلى غرفتها.

«مباراة بلا جدوى»، كلمات أثَّرت فيها. على هذا النحو يرى هؤلاء الآخرون الحياة: مباراة بلا جدوى. كادت، قبل حين، أن تكشف النقاب عن اقتراح الغريب لكي ترى: أيستطيع هؤلاء الناس المستسلمون وفقراء العقل، أن يخوضوا معركة ذات جدوى حقاً: عشر سبائك من الذهب مقابل جريمة يسيرة تضمن مستقبل أولادهم وأحفادهم، وتعيد المجد الضائع لبسكوس، مع ذئاب أو من دونها.

ولكنها تمالكت نفسها. لقد اتخذت قرارها. هذا المساء بالذات ستروي الحكاية في الحانة، على مسامع الجميع. سترويها بطريقة لا يستطيع أحد معها أن يقول إنه لم يسمع أو لم يفهم. قد يقبض الزبائن على الغريب ويقودونه، مباشرة، إلى الشرطة، ويتركونها، هي، طليقة، حرة في أخذ سبيكتها مقابل هذه الخدمة التي قدّمتها إلى السكان. لكن إذا لم يصدّقوا ما تقول فسوف يذهب الغريب مقتنعاً بأنهم، جميعاً، صالحون، وهذا ليس صحيحاً.

كلّهم جَهَلة، مستسلمون، ساذجون. ما من واحد فيهم يؤمن بأمر لا يكون جزءاً مما تعوّد الاعتقاد به. جميعهم يخافون الله. جميعهم، بمن فيهم هي بالذات، جبناء في اللحظة التي يستطيعون، فيها، تغيير قدرهم.

ما عادت الحمّى شديدة. انهمكت شانتال بإعداد طعام الفطور لتحصل على بعض الدفء. بل تشعر بالنشاط، على الرغم من ليالي الأرق الثلاث. لم تكن وحدها الجبانة. بل على العكس، ربما كانت هي وحدها التي تدرك أنها جبانة، لأن الآخرين يقولون عن الحياة إنها «مباراة بلا جدوى»، ويمزجون خوفهم بكرمهم.

تذكرّت رجلاً من سكان بسكوس كان يعمل في صيدلية مدينة مجاورة، صُرف من عمله بعد عشرين سنة. لم يطلب أيَّ تعويض لأنه كان، بحسب قوله، على علاقة صداقة بصاحب الصيدلية، ولم يشأ أن يجرح شعوره، نظراً للصعوبات المالية التي أدّت

إلى صرفه. خداع: إن هذا الرجل لم يلجأ إلى إثبات حقوقه أمام العدالة، لأنه كان جباناً، وكان يريد أن يكون محبوباً بأيِّ ثمن. ويأمل أن يعتبره ربُّ عمله، باستمرار، شخصاً كريماً أخوياً. بعد وقت قصير ذهب الرجل، بدافع حاجته إلى المال، ليطلب من ربِّ عمله السابق قرضاً، فصدّه بقسوة: «ألم تكن على قدر من الضعف بحيث توقّع كتاب استقالة؟ ما عاد بإمكانك أن تطالب بشيء!».

قالت شانتال في سرّها: «إنه يستحق ذلك». إنَّ لعِبَ دور النفوس الرحيمة، هو أمر جيد، فقط، لأولئك الذين يخشون الاضطلاع بمواقف في الحياة. إن إيمان المرء بطيبته الذاتية أسهل عليه، دائماً، من مجابهته للآخرين وكفاحه من أجل حقوقه الشخصية. وإن من الأيسر، دائماً، أن نتلقّى الإهانة، من أن نملك الشجاعة لمجابهة خصم أقوى منا. باستطاعتنا أن نقول، دائماً، إن الحجر الذي رُشقنا به لم يُصبنا، وفي الليل فقط، عندما نكون بمفردنا، أو يكون الزوج نائماً، أو الزوجة، أو زميل الصفّ، في الليل فقط، نستطيع أن نرثي، بصمت، جُبننا.

ارتشفت شانتال قهوتها وهي تردّد في سرّها: «المهم أن ينقضي النهار بسرعة!». ستعمل على تدمير هذه القرية، والانتهاء من بسكوس هذا المساء بالذات. وهي، على كل حال، قرية محكومة بالزوال في أقل من جيل واحد، لعدم وجود أطفال فيها. إن الجيل الجديد يصنع أحفاداً في مدن أخرى من البلاد، حيث تتاح له الحياة السعيدة، في دوامة «المباراة غير المجدية».

ولكن النهار ينقضي ببطء. وبالنظر إلى السماء الرمادية، والغيوم الخفيضة، تشعر شانتال أن الساعات متباطئة، متطاولة. الضباب يحجب الجبال، والقرية تبدو معزولة عن العالم، ضائعة في ذاتها، لكأنها الجزء الوحيد المسكون من الأرض. رأت شانتال، من نافذتها،

الغريب مغادراً الفندق متّجهاً نحو الجبال، على جري عادته. خافت على سبيكتها الذهبية، ولكنها اطمأنت فوراً: سيعود، لقد سدّد للفندق أجرة أسبوع، والأغنياء لا يبذّرون مالهم إطلاقاً. وحدهم الفقراء يفعلون.

حاولت القراءة، ولكنها عجزت عن التركيز. فعزمت على القيام بجولة في القرية، لم تلتقِ سوى، برتا، الأرملة التي تقضي النهارات جالسة على عتبة منزلها، متنبّهة إلى كل ما قد يحدث.

قالت برتا:

ـ الطقس سيزداد سوءاً.

تساءلت شانتال: لمَ يهتم المتبطّلون بحالة الطقس إلى هذا الحد؟ اكتفت بأن وافقت بإيماءة من رأسها وتابعت طريقها. لقد سبق لها أن استنفدت كل موضوعات الحوار الممكنة مع برتا طوال هذا الوقت الذي عاشته في بسكوس. كانت تجدها، في وقت ما، امرأة ممتعة، وشجاعة، وقادرة على تنظيم حياتها، حتى بعد وفاة زوجها في حادث صيد: باعت برتا بعض ما لديها، ووضعت ثمنه، فضلاً عن مردود بوليصة التأمين على الحياة الخاصة بزوجها، في مصرف، وعاشت من تلك العائدات. ولكن مع مرور السنين لم تعد برتا تثير اهتمام شانتال التي راحت، فيما بعد، ترى فيها صورة مصير ترغب في اجتنابه بأيّ ثمن: لا، ليس وارداً إنهاء حياتها تجلس على كرسي، مدّثرة خلال الشتاء، كأنها في مرقاب، وليس، في ما يُشاهَد، شيء مفيد، أو مهمّ، أو ممتع.

وصلت إلى الغابة القريبة، حيث تستنقع طبقات ضبابية، دون خوف من أن تضيع، لأنها تكاد تعرف، غيباً، جميع الدروب الجبلية، والأشجار، والصخور. وكانت تعيش، أثناء سيرها، وقائع الأمسية، إنها أمسية نابضة بكل تأكيد، جرَّبت، في ذهنها، أساليب عديدة لرواية اقتراح الغريب: إما أن تكتفي بنقل ما شاهدته وما سمعته حرفياً، وإما أن تختلق حكاية قريبة من الحقيقة، باذلةً جهدها لإكسابها أسلوب هذا الرجل الذي حرمها النوم منذ ثلاثة أيام.

«إنه رجل خطر جداً، أسوأ من كل الصيادين الذين عرفتهم».

فجأة، أدركت شانتال أنها اكتشفت شخصاً آخر لا يقلُّ خطراً عن الغريب: إنه هي بالذات. قبل أربعة أيام لم تكن لتدرك أنها بصدد أن تؤالف بين ما كانت عليه، وأملها بالمستقبل، وواقع الحياة القائمة في بسكوس والتي ليست بغيضة جداً، ذلك أنها تشعر بالغبطة صيفاً، عندما يَغصّ المكان بالسيّاح الذين يرون فيه «جنة صغيرة».

أما الآن، فإن المسوخ تغادر قبورها، وتسكن لياليها، مسببة تعاستها. تشعر بأن الله تخلّى عنها كما تخلّى عنها مصيرها. وأسوأ من ذلك أيضاً: أنها ترغمها على معاينة المرارة التي تُضنيها ليل نهار، خلال نزهاتها في الغابة، وفي عملها، وفي لقاءاتها القليلة، وفي لحظات وحدتها المتكررة.

«ينبغي لهذا الرجل أن يُدان، وأنا معه، أنا التي جعلته في طريقي».

قررت العودة. إنها نادمة على كل دقيقة من حياتها، وتلعن والدتها التي ماتت وهي تلدها، وجدّتها التي علّمتها أن تبذل ما بوسعها لتكون صالحة وشريفة، وأصدقاءها الذين تخلّوا عنها، وقدرها الملتصق بجلدها.

كانت برتا جالسةً على الكرسي لم تبرح.

ـ إنك تمشين بسرعة. اجلسي إلى جانبي وارتاحي قليلاً...

قبلت شانتال الدعوة، فهي قد تفعل أيَّ شيء لكي ينقضي الوقت بسرعة.

قالت برتا:

ـ يقال إن القرية تتغيّر، وإن ثمة شيئاً مختلفاً في الأجواء. أمس مساءً، سمعت عواء الذئب الملعون.

تنفست المرأة الشابة الصعداء. سواء كان الذئب ملعوناً أم لا، فقد عوى في الليلة السابقة، ولم تكن الوحيدة التي سمعته.

وأجابت قائلة:

ـ هذه القرية لا تتغير أبداً. الفصول وحدها تتغيّر. ها نحن في فصل الشتاء.

ـ لا، بل هو مجيء الغريب.

ارتعدت شانتال. هل اعترف الغريب لأحد سواها؟

ـ ما صلة مجيء الغريب ببسكوس؟

ـ إنني أقضي أيامي محدّقة إلى ما حولي. يرى البعض في ذلك إضاعة للوقت. لكنها الوسيلة الوحيدة لقبول موت من أحببت كثيراً. أرى الفصول تمرُّ، والأشجار تفقد أوراقها ثمَّ تستعيدها. لا يمنع أن يؤدي عنصر غير منتظر إلى تغييرات نهائية. قيل لي إن الجبال المجاورة هي ثمرة زلزال ضرب المنطقة منذ آلاف السنين.

وافقت شانتال على قولها، فقد لقّنوها في المدرسة ما حصل.

ـ إذن، ما من شيء يعود مثلما كان. أخشى أن يطرأ ذلك الآن.

فجأة، راودت شانتال الرغبةُ في أن تروي حكاية السبيكة، لأنها شعرت بأن الأرملة تعرف شيئاً ما بهذا الخصوص، ولكنها لزمت الصمت. أردفت برتا قائلة:

ـ إني أفكر بآهاب، المصلح الكبير، بطلنا، الرجل الذي باركه القديس سافان.

ـ لماذا آهاب؟

ـ «لأنه كان جديراً بأن يفهم أن باستطاعة شيء بسيط، لا قيمة له، أن يدمّر كل شيء. يروى أنه بعد أن وطَّد السلام في القرية، وطرد اللصوص الشرسين، وقام بتحديث زراعة بسكوس وتجارتها، جمع، ذات مساء، أصدقاءه، للعشاء. أعدّ لهم وجبة شواء من الدرجة الأولى ثم انتبه فجأة إلى نفاد الملح.

،عند ذلك قال آهاب لابنه:

ـ اذهب إلى البقال واشتر ملحاً، ولكن ادفع السعر المحدَّد، لا أكثر ولا أقل.

،أجاب الابن بشيء من الدهشة:

ـ أفهم يا أبي، يجب ألاّ أدفع أكثر من السعر المحدّد، ولكن إذا كان باستطاعتي أن أساوم قليلاً، لِمَ لا أقتصد قليلاً من المال؟

ـ أنصحك بذلك في مدينة كبيرة، ولكن في قرية مثل قريتنا، فإن مثل هذا التصرّف قد يؤدي إلى كارثة.

،ما أن غادر الابن لشراء الملح حتى سأل الحاضرون، لم لا تجوز المساومة في سعر الملح؟ أجاب آهاب:

ـ لأن من يقبل بتخفيض سعر سلعة يبيعها، هو بالتأكيد في حاجة ماسة إلى المال، ومن يستغلُّ مثل هذا الموقف يبرهن عن احتقار بالغ لعرَقِ وجهد رجل عمل بكدٍّ لكي ينتج هذا الشيء.

،ولكن سبباً تافهاً مثل هذا لا يعقل أن يؤدي إلى زوال قرية من الوجود.

،كذلك، كان الظلم، في بداية العالم تافهاً جداً، ولكن كل جيل أضاف إليه ممّا عنده، معتبراً أن الأمر غير ذي بال، وانظري أين أصبحنا الآن.

قالت شانتال، آملة أن تعترف برتا بأنها تحدّثت إلى الغريب:

ـ مثل الغريب، أليس كذلك؟

ولكن العجوز لاذت بالصمت. ألحَّت شانتال قائلة:

ـ أود، فعلاً، أن أعرف لماذا أراد آهاب إنقاذ القرية بأيِّ ثمن. كانت ملجأ للمجرمين، والآن غدت قرية للجبناء.

لا شك في أن العجوز تعرف شيئاً. يبقى أن تكتشف: هل بلغها عن لسان الغريب؟

ـ هذا صحيح، ولكن لست أدري إذا كان بإمكاننا الكلام، حقاً، عن الجبن. أرى أن جميع الناس يخافون من التغيير. سكان بسكوس يريدون، جميعهم، أن تبقى قريتهم كما كانت دائماً: مكاناً لاستثمار الأرض وتربية المواشي، وتوفير استقبال حارّ للسيّاح والصيادين، ولكن، أيضاً، مكاناً يعرف فيه كل فرد، بالضبط، ما الذي سيحصل غداً، باستثناء تقلّبات الطبيعة. ربما كان ذلك منحى للتنعُّم بالسلام. كما أني أتفق معك على أمر: إنهم متّفقون على أنهم يسيطرون على كل شيء، ولكنهم لا يسيطرون على شيء.

قالت شانتال:

ـ إنهم لا يسيطرون على شيء، هذا صحيح.

قالت العجوز مقتبسة عن الإنجيل:

ـ «ما من أحد يستطيع أن يضيف حرفاً على ما هو مكتوب». ولكننا نحب أن نعيش مع هذا الوهم، إنها طريقة لكي نشعر أنفسنا ببعض الطمأنينة.

«في نهاية الأمر، إنه خيارُ حياةٍ مثل أيِّ خيار آخر، وإن كان من الغباء الاعتقاد بأننا نستطيع أن نسيطر على العالم، معتصمين بأمانٍ وهميٍّ يحول دون إعدادِ أنفسنا لصروف الحياة. وفي الوقت الذي ننتظر، فيه، من تلك الصروف أقلّها، ترفع هزةٌ أرضيةٌ جبالاً، وتيبس صاعقةٌ شجرةً ستستعيد اخضرارها في الربيع، وينهي حادث قنص حياة رجل شريف».

وَرَوَتْ برتا، للمرة الألف، كيف مات زوجها. كان أحد الأدلاّء المنظورين في المنطقة، لم يكن يرى في القنص رياضة متوحشة، بل فن احترام تقاليد المكان. وبفضله أنشأت بسكوس محمية للحيوان، حيث طبّقت البلدية قرارات تهدف إلى حماية الأنواع المعرّضة للانقراض. وجرى تنظيم قنص الطرائد العادية، وفُرض على كلّ طريدة تقتنص، رسم مالي يُنفق على الأعمال الخيرية في القرية.

كان زوج برتا يحاول أن يرسّخ في أذهان الصيادين كافة أن هواية القنص هي، بنحوٍ ما، فنٌّ للعيش. عندما يستعين به رجل ثري، قليل الخبرة، كان يرافقه إلى مكان مقفر، ويضع علبة فارغة فوق حجر، ويبتعد مسافة خمسين متراً، وبطلقة واحدة تتطاير العلبة.

كان يقول: «أنا أفضل رامٍ في المنطقة. والآن ستتعلم طريقة تجعلك ماهراً مثلي».

يعيد العلبة إلى مكانها، ويقف مجدداً على مسافة خمسين متراً، يأخذ منديلاً ويطلب من الرجل أن يعصب له عينيه. بعد ذلك يضع البندقية على كتفه ويطلق.

يسأل وهو يرفع المنديل:

ـ هل أصبتها؟

يقول الصياد المتدرّب، وهو مسرور بأن يرى مدرّبه، المعتدّ بنفسه، موضع سخرية:

ـ لا، طبعاً. لقد مرّت الطلقة بعيداً، أظن أنه ليس لديك ما تعلّمني إياه.

يقول زوج برتا حينئذٍ:

ـ لقد لقّنتك الدرس الأكثر أهمية في الحياة: إذا أردت أن تنجح في أمر ما، فدعْ عينيك مفتوحتين، وركّز تفكيرك لكي تدرك تماماً ما الذي تريده. لا أحد يصيب هدفه وهو مغمض.

ذات يوم، وفي الوقت الذي كان يعيد فيه العلبة إلى مكانها، ظن مرافقه بأنه دوره قد حان للإطاحة بالعلبة. فاطلق النار قبل أن يتسنّى لزوج برتا الابتعاد، فأخطأ العلبة وأصابه في رأسه مباشرة.

قالت شانتال: «يجب أن أذهب، فلدي أعمال أنجزها قبل حلول المساء».

تمنَّت برتا لها يوماً سعيداً وتبعتها بعينيها حتى توارت في الشارع المحاذي للكنيسة. إن جلوسها أمام منزلها منذ سنين، وثرثرتها، المتخيَّلة مع زوجها الراحل، علَّماها أن «ترى» الأشخاص. زادُها من المفردات محدود، لذا يصعب عليها أن تجد كلمة أخرى لتصف الأحاسيس المتعدِّدة التي يثيرها الآخرون في نفسها. ولكن هذا ما كان يحدث: كانت «تميِّز» الآخرين، وتدرك مشاعرهم.

بدأ كل شيء لدى دفن حبِّها الكبير والوحيد. كانت غارقة في دموعها عندما سألها صبيٌّ بجوارها، عن سبب حزنها.

لم تشأ برتا بلبلة الطفل بالحديث عن الموت وعن الوداع الأخير، بل اكتفت بالقول إن زوجها رحل ولن يعود، عمَّا قريب، إلى بسكوس.

أجابها الصبي:

«أظن أنه روى لك بعض الحكايات. لقد رأيته مختبئاً وراء أحد القبور، كان يبتسم، وفي يده ملعقة حساء».

سمعته أمه وزجرته بقسوة، وقالت لتعتذر عن ابنها: «الأطفال لا يتوقَّفون عن رؤية أشياء». ولكن برتا جفَّفت دمعها فوراً ونظرت باتجاه القبر المقصود. كان من عادة زوجها أن يتناول حساءه، دائماً، بملعقة واحدة لا يغيرها، وهي عادة مستهجنة لم يتخلَّ عنها رغم انزعاج برتا. مع ذلك لم تخبر أحداً بذلك مخافة أن يحسبوه مجنوناً. فادركت، إذن، أن الصبي قد شاهد زوجها بالفعل؛ إن ملعقة الحساء لدليلٌ على ذلك. الأطفال «يرون» بعض الأشياء. ومنذ ذلك الحين قررت، هي أيضاً، أن «ترى»، لأنها تريد أن تتحدث إليه، أن يعود إلى حوارها، حتى ولو عاد شبحاً.

انعزلت، في البداية، حبيسة منزلها، لا تغادره إلا نادراً، بانتظار أن يظهر أمامها. في يوم جميل تملَّكها ما يُشبه الحدس: ينبغي لها أن

تجلس عند عتبة بابها وتنتبه إلى الآخرين. كما أدركت أن زوجها كان ليُسَرَّ لو وجد أنها تواصل حياةً أكثر متعة، وأنها تسهم، بمقدار أكبر، في مجريات الحياة في القرية.

وضعت برتا كرسيّاً أمام منزلها ووجهت نظرها نحو الجبال. كان المارة قليلين في شوارع بسكوس. مع ذلك جاءت، في ذلك اليوم بالذات، امرأة من قرية مجاورة وقالت لها إنهم في السوق المتنقّلة يبيعون لوازم المائدة بأسعار زهيدة، لكنها من صنف جيد، وأخرجت من قفّتها ملعقة لتبرهن على صحة كلامها.

اقتنعت برتا بأنها لن ترى زوجها إطلاقاً. ولكن، بما أنه طلب منها أن تراقب القرية، فهي ستحترم إرادته. بدأت، مع الوقت، تلاحظ وجودَ أحدٍ ما إلى يسارها، فغدت موقنةً بانه كان هناك ليرافقها، وليحميها من كل خطر، ثم ليعلّمها كيف ترى الأشياء التي لا يدركها الآخرون، كتشكيلات الغيوم التي تحمل رسائل معينة. حزنت قليلاً عندما شعرت، وهي تحاول النظر إليه مباشرةً، أن حضوره مالَ إلى التلاشي. ولكنها لاحظت، بسرعة، أن باستطاعتها التواصل معه عبر حدسها. وبدآ يخوضان في حوارات حول شتّى الموضوعات الممكنة.

بمضي ثلاث سنوات، صارت قادرة على «رؤية» مشاعر الناس، وعلى تلقّي بعض النصائح العملية المفيدة جداً من زوجها: عدم قبول المبلغ المترتّب على عقد التأمين على الحياة، بالتراضي؛ أو الانتقال من المصرف المعتمد إلى آخر قبل أن يعلن إفلاسه متسبّباً بخراب مصالح عدد من الناس.

ذات يوم ـ نسيت متى كان ذلك ـ قال لها إن بسكوس يمكن أن تُدمَّر. تخيلت برتا، في الحال، زلزالاً، وجبالاً تنبثق في الأفق. ولكنه طمأنها بأن مثل هذا الحدث لن يقع قبل ألف عام. إن ما كان يخشاه هو نموذج مختلف من الدمار، دون أن يعرف طبيعته. على كل حال، يجب أن تبقى متيقظة، لأن بسكوس

قريتها، والمكان الذي تحبُّه أكثر من أيّ شيء في العالم، حتى وإن كان قد تركها أبكر مما كانت تتمنى.

بدأت برتا تتنبَّه، أكثر فأكثر، إلى الأشخاص، وإلى أشكال الغيوم، وإلى الصيادين العابرين. لا شيء يدل على أنَّ هناك من يخطِّط، في الظلمة، لتدمير قرية لم تصدر عنها إساءة إلى أي من الناس. ولكن زوجها كان يطلب إليها بإلحاح، ألاَّ تضعف انتباهها، وها هي تُنفذ وصيته.

قبل ثلاثة أيام، شاهدت الغريب يأتي برفقة شيطان. وفهمت أن انتظارها شارف نهايته. واليوم لاحظت أن الفتاة كانت محاطة بشيطان وبملاك. فعمدت فوراً إلى الربط بين هذين الأمرين واستنتجت أن أمراً مستغرباً يجري في قريتها.

ابتسمت لنفسها. التفتت يسرةً، ووجَّهت، إيماء، قبلةً خفيةً. لا، ليست مجرد عجوز لا نفع منها. لديها شيء مهم جداً تقوم به: إنقاذ المكان الذي ولدت فيه، من دون أن تعرف، بعد، التدابير التي يجب اتخاذها.

تركتها شانتال غارقة في أفكارها وذهبت إلى غرفتها. إذا صدّقنا شائعات سكان بسكوس، تكون برتا عجوزاً ساحرة. يقولون إنها بقيت، طوال عام، حبيسة منزلها، تتعلم فنون السحر. سألت شانتال، يوماً، عمَّن علّمها ذلك، فزعم بعضهم أن الشيطان، شخصياً، كان يظهر لها أثناء الليل، فيما أكّد آخرون أنها تستحضر كاهناً سلتياً باستعمالها عبارات نقلها أجدادها إليها. ولكن لا أحد يبالي بذلك: برتا غير مؤذية، ودائماً في جعبتها حكايات ترويها.

كان الجميع متفقين على هذا الاستنتاج. ومع ذلك لم ينقطع دابر الأقاويل ذاتها. فجأة، تسمَّرت شانتال في مكانها، يدها على قبضة الباب. لقد سمعت برتا، غير مرة، تسرد حكاية موت زوجها،

إنها في هذه اللحظة، فقط، تدرك أن في تلك الحكاية درساً جوهرياً لها. تذكرت نزهتها الأخيرة في الغابة، حقدها الأعمى، استعدادها لإيذاء الجميع من حولها دون تمييز: القرية، سكانها، أصلهم، وهي ذاتها إذا تطلّب الأمر.

ولكن الهدف الوحيد، في الحقيقة، هو الغريب: أن تركّز تفكيرها، أن تطلق، أن تنجح في إصابة الطريدة. لهذا ينبغي إعداد خطة. لعلّها حماقة سوف تقدم عليها عندما تفصح عن شيء ما، هذا المساء، خصوصاً أنها لم تعد مسيطرة تماماً على الموقف. فقررت أن تؤجل، يوماً أو يومين، سرد وقائع لقائها الرجل الغريب، وربّما أحجمت عن ذلك نهائياً.

❊ ❊ ❊



٦

ذلك المساء، عندما تلقت شانتال المشروبات التي قدَّمها الغريب، كالعادة، لاحظت أنه يدسُّ خلسةً قصاصة ورق في يدها. وضعت القصاصة في جيبها، متظاهرةً باللامبالاة، غير أنها كانت قد انتبهت إلى أن الرجل حاول مراراً، أن يبادلها النظرات. وبدا أن اللعبة صارت معكوسة: كانت ممسكة بزمام الموقف، ولها أن تختار، هي، زمان المعركة ومكانها. فتلك خصال الصيادين المهرة: إذ يفرضون، دائماً، شروطهم، ويستدرجون الطريدة إليهم.

تريثت ريثما تعود إلى غرفتها لتقرأ الورقة، وإحساسها بأنها، هذه المرَّة، سوف تنعم بنوم عميق. كان الغريب يقترح عليها أن يلتقيا في المكان الذي تعارفا فيه. ويضيف أنه يفضل أن يكون حديثهما على انفراد، لكنه لن يتوانى عن الكلام أمام الجميع إذا، هي، شاءت.

أدركت التهديد المضمر. وبدل أن يساورها الخوف، بدت مسرورة به. فهذا يؤكد أنه موشك على فقدان السيطرة، لأنَ الرجال والنساء الخطيرين لا يلجأون إلى أسلوب مماثل. فقد كان من عادة آهاب، جالب السلام لبسكوس، أن يردد قائلاً: «هناك نوعان من الحمقى: أولئك الذين يعدلون عن فعل شيء لأنهم تلقوا تهديداً، وأولئك الذين يعتقدون بأنهم سيفعلون شيئاً لأنهم يهدِّدون الغير».

مزَّقت الورقة إلى قطع صغيرة، ثم ألقت بها في حوض المرحاض وجذبت طزادة المياه. وبعد أن استحمت بماء ساخن جداً، اندست

تحت الأغطية وهي تبتسم. لقد حققت ما كانت تتمناه: ستلتقي الغريب مجدّداً وجهاً لوجه. وإذا كانت تودّ أن تعلم كيف تهزمه، فمن الأفضل أن تعرفه.

وكان نومها عميقاً مريحاً، مجدّداً للقوى. لقد قضت ليلة مع الخير، وليلة مع الخير والشر، وليلة مع الشر. ولم ينتصر أحدهما، كما لم تنتصر هي، لكنهما لطالما كانا حيين في روحها، وها قد شرعا يتعاركان، لكي يبرهن أحدهما أنه الأقوى.

* * *



٧

لمّا بلغ الغريب ضفة النهر، كانت شانتال تنتظره تحت مطر غزير، إذ حلّ الزمهرير مجدداً.

قالت:

ـ لن نتحدّث عن الطقس. إنها تمطر، لا أكثر، ولا أقل. أعرف مكاناً نستطيع فيه أن نكون على سجيّتنا في الكلام.

نهضت وأمسكت بالحقيبة القماش، المستطيلة، التي كانت تحملها.

قال الغريب:

ـ إنك تخفين بندقية في هذه الحقيبة.

ـ أجل.

ـ تريدين قتلي.

ـ صدقت. لا أدري إذا كنت سأتمكّن من ذلك، ولكنني أودّ أن أفعل. وبأية حال، لقد أحضرت هذا السلاح لسبب آخر: فمن المحتمل أن أصادف الذئب الملعون في طريقي. إن أفلحت في قتله، فسوف أحظى باحترام أكبر في بسكوس. سمعته، بالأمس، يعوي. ولكن لم يصدّقني أحد.

ـ ذئب ملعون؟

تساءلت عمّا إذا كان ينبغي أن ترفع الكلفة بينها وبين هذا

الرجل الذي صار عدوّاً لها، ولم تنسَ ذلك بعد. ولكنها تذكّرت كتاباً عن فنون القتال اليابانية. فهي لم تكن شغوفة بإنفاق مالها على شراء الكتب، ولذا تقرأ ما يتركه زبائن الفندق من كتب لدى مغادرتهم، مهما يكن نوعها. وقد تعلّمت من ذلك الكتاب أن الطريقة الأفضل لإضعاف خصمك هي في إقناعه بانك تقف إلى جانبه.

أثناء سيرها، غير مكترثة للريح والمطر، سردت هذه الحكاية: قبل عامين كان رجل من أهل بسكوس، وهو حدّاد البلدة، يتنزه في الغابة عندما وجد نفسه، مباشرة، أمام ذئب وجرائه. على الرغم من خوفه، أمسك الرجل بغصن غليظ واندفع باتجاه الحيوان. كان متوقّعاً أن يفرّ الذئب خوفاً؛ لكنه، لوجود صغاره معه على الأرجح، اندفع بدوره باتّجاه الحدّاد وعضه في ساقه. ولما كان الحدّاد يتمتّع بقوة غير عادية، بالنظر إلى صنعته، فقد استطاع أن يسدّد ضربة إلى الحيوان كانت من القوة بحيث أرغمته على الفرار متوارياً في الدغل، بصحبة جرائه. وكل ما كان يُعرف عنه هو أن هناك بقعة بيضاء عند أذنه اليسرى.

ـ ولمَ هو ملعون؟

ـ إن الحيوانات، حتى أشرسها، لا تهاجم بالإجمالِ إلّا في حالات استثنائية، كما في مثل هذه الحالة، عندما تُضطر لحماية صغارها. بيد أنها، إذا هاجمت، مصادفة، وذاقت الدم البشري، تغدو شديدة الخطورة ساعية لتذوّقه من جديد. عندئذ لا تعود حيوانات برية، بل مفترسة. إن جميع الناس في بسكوس يعتقدون أن ذلك الذئب سوف يعاود هجماته، ذات يوم.

قال الغريب في سرّه: «إنها حكايتي».

حثّت شانتال خطواتها. إنها شابة، متمرّسة، وتريد أن ترى هذا الرجل لاهثاً. وبذلك تتفوّق عليه نفسياً، لا بل وتُذلُّه. غير أنه، برغم لهاثه، انتصر لكبريائه، ولم يطلب إليها أن تبطىء.

بلغا كوخاً صغيراً، مموَّهاً جيداً، يستعمل مكمناً للصيادين. جلسا، وهما يفركان أيديهما لتدفئتها.

قالت شانتال:

ـ ماذا تريد؟ لمَ أعطيتني تلك الورقة؟

ـ أريد أن أطرح عليك لغزاً: أي يوم من أيام حياتنا كلّها، هو اليوم الذي لا يَحلُّ أبداً؟

لم تَحِر شانتال جواباً.

قال الغريب:

ـ الغد. فالظاهر أنك لا تؤمنين بأن الغد سوف يأتي، وها إنك تؤجلين تنفيذ ما طلبته منك. لقد صرنا في نهاية الأسبوع، وإذا امتنعت عن القول، فسأفعل ذلك بنفسي.

خرجت شانتال من الكوخ، وابتعدت قليلاً. فتحت حقيبتها وأخرجت البندقية منها. تظاهر الغريب بأنه لم ير شيئاً، ثم تابع قائلاً:

ـ لقد لامستِ السبيكة. لو كان عليك أن تؤلفي كتاباً حول هذه التجربة، أتعتقدين أن معظم قرائك، بكلّ ما يواجهون من صعاب، وما يكابدون من عذابات ومشكلات مادية يومية، أتعتقدين أن هؤلاء جميعاً، يتمنون أن تأخذي السبيكة وترحلي؟

قالت، وهي تلقم البندقية خرطوشة أولى:

ـ لا أدري.

ـ ولا أنا أدري. إنه الجواب الذي كنت أنتظره.

لقمت شانتال البندقية خرطوشة ثانية.

ـ إنك مستعدة لقتلي، ولا تحاولي خداعي بحكاية الذئب تلك. إنك تجيبين، بالفعل، عن السؤال الذي أطرحه على نفسي: البشر قاطبةً أشرار في الجوهر، ونادلة بسيطة مثلك تعيش في قرية

صغيرة، خليقة بارتكاب جريمة من أجل المال. سأموت، ولكني، الآن، حظيت بالجواب. وسأموت قرير العين.

قالت شانتال، وهي تناوله البندقية:

ـ خذ، لا أحد يعلم بأنني أعلم. إن كل البيانات المدوّنة على بطاقة الفندق الخاصة بك، كاذبة. باستطاعتك الرحيل متى تشاء، ولديك، على ما أعلم، ما يكفي للذهاب إلى أيّ مكان في العالم. لا تحتاج لأن تكون رامياً ماهراً، يكفي أن تصوّب البندقية نحوي وتضغط على الزناد. هذه البندقية مذخّرة بطلقات تستعمل لقنص الطرائد الكبيرة والبشر، هي تسبب جراحاً فظيعة، ولكن يسعك دائماً ألا تنظر إذا كنت مرهف الأحاسيس.

وضع الرجل سبّابته على الزناد وصوّب السلاح نحو شانتال التي لاحظت، مندهشة، أنه يُمسك به بثقة المحترفين. بقيا، لبعض الوقت، صامتين لا يحركان ساكناً. كانت تعلم أن الطلقة قد تنطلق بغتة. تكفي حركة خاطئة ناجمة عن ضجة مفاجئة أو صوت حيوان. فجأة أدركت كم كان تصرُّفها سخيفاً: فما الجدوى من تحدّي شخصٍ لمجرّد الاستمتاع باستفزازه، ظناً منا أنه عاجز عن الإتيان بما يطلب من الآخرين فعله؟

لبث الغريب جامداً مثل حجر، وإصبعه على الزناد: لا يرفّ له جفن ولا رعشة تسري في يديه. لقد فات الأوان، حتى لو كان مقتنعاً، في أعماقه، بأن القضاء على هذه الآنسة التي تحدّته، ليس أمراً عقيماً. فتحت شانتال فمها لكي تستغفره، ولكن الغريب خفض السلاح، قبل أن تنبس بكلمة.

قال وهو يناولها البندقية:

ـ كما لو أني أستطيع أن ألمس خوفك. إني أشتمّ رائحة العرق المتصبّب من كل مسام جلدك، برغم المطر الذي يغسله. وأسمع، برغم حفيف الأوراق التي تعصف بها الرياح، قلبك الذي يخفق بقوة في صدرك.

قالت شانتال، وهي تتظاهر بعدم سماعه، إذ بدا لها أنه يفهمها جيداً، رغم كل شيء:

ـ سأفعل ما طلبته مني. فقد جئت إلى بسكوس لأنك تريد أن تعرف المزيد عن طبيعتك الخاصة، ما إذا كنت صالحاً أو شريراً. لقد استطعت، على الأقل، أن أبيّن لك أمراً: فعلى الرغم مما شعرت به أو توقّفت عن الشعور به، قبل قليل، فإن الفرصة كانت متاحة لكي تضغط على الزناد، ولم تفعل. أتدري لماذا؟ لأنك جبان. أنت تستخدم الآخرين لتحلّ نزاعاتك الشخصية. ولكنك عاجز عن الاضطلاع بمسؤولية بعض المواقف.

ـ «قال فيلسوف ألماني ذات يوم: «حتى الرب له جحيمه: هو حبُّه للإنسانية». لا، لست جباناً. لقد سبق لي أن صنعت أسلحة، واستعملت بعضها، وهي أفضل بكثير من هذه البندقية. كما أنني نشرتها في العالم. كنت أعمل في ظل القانون، بموافقة الحكومة على الصفقات التجارية وإجازات التصدير طبقاً للأصول المرعية. تزوجت من المرأة التي أحببت، فانجبت لي بنتين رائعتين. لم ألجأ إطلاقاً إلى اختلاس قرش واحد من شركتي، وكنت أعرف دائماً أن أطالب بحقي.

«إنني نقيضك، أنت التي تزعمين أن القدر يضطهدك. ولطالما كنت رجلاً جديراً بأن أفعل، وأن أقاتل ضد بعض الخصوم، وأن أخسر بعض المعارك وأفوز ببعضها الأخر، ولكني كنت جديراً أيضاً بأن أدرك أن الانتصارات والهزائم هي جزء من حياة كل إنسان، إلّا حياة الجبناء، مثلما قلتِ، لأنهم لا يربحون ولا يخسرون إطلاقاً.

«قرأت كثيراً، وتردّدت إلى الكنيسة. خشيت الله واحترمت وصاياه. وكنت صناعياً ذا دخل هائل، على رأس شركة كبيرة. وكنت، فضلاً عن ذلك، أقبض عمولات على العقود التي أحصل عليها، أي كنت أكسب ما يجعل عائلتي وذريتي في مأمن من الحاجة. تعرفين أن تجارة الأسلحة هي التجارة الأكثر ربحاً في

العالم. كنت أعرف أهمية كل نموذج أبيعه. لذلك أشرف شخصياً على أعمالي. اكتشفت عدداً من حالات الفساد، صرفت الجناة، وألغيت العقود المشبوهة. كانت أسلحتي مصنوعة من أجل الدفاع عن النظام، وهو أمر أساسي إذا أردنا ضمان تطوّر العالم وبنائه، هذا ما كنت أؤمن به».

اقترب الغريب من شانتال، وثبّت كتفيها ليرغمها على النظر في عينيه، ليُفهمها أنه يقول الحقيقة.

ـ قد تظنين أن صانعي الأسلحة هم أسوأ ما في العالم. لا ريب أنك محقّة في ذلك. لكنَّ الواقع أن الإنسان، منذ عصر الكهوف، استخدمها بداية لقتل الحيوان، ثمَّ لبسط سلطانه على الآخرين. من الممكن وجود العالم بلا زراعة وبلا تربية مواشٍ، وبلا أديان، وبلا موسيقى، لكنه غير ممكن الوجود بلا أسلحة.

التقط حجراً ورازه بيده.

ـ انظري: هذا أول سلاح منحته، بسخاء، أمُّنا الطبيعة للمحتاجين إلى الردّ على هجمات الحيوانات فيما قبل التاريخ. إن حجراً مثل هذا أنقذ، بلا ريب، إنساناً. وهذا الإنسان أتاح لنا، بعد أجيال وأجيال، أن نولد، أنا وأنت. لو لم يملك هذا الحجر لكان فريسة سهلة لحيوان كاسر، ولما أتيح لمئات الملايين من الناس أن يولدوا.

زخَّة مطر لفحت وجهه، لكن نظره بقي ثابتاً.

ـ هكذا تجري الأمور: كثيرون من الناس ينتقدون الصيادين، ولكن بسكوس تستقبلهم بأذرع ممدودة لأنهم ينشّطون الحركة التجارية. والناس، عموماً، يكرهون مشاهدة حفلات مصارعة الثيران، ولكن ذلك لا يمنعهم من شراء لحم الثور متذرّعين بأنه، أي الثور، مات ميتة نبيلة. كذلك هناك الذين يكرهون صانعي الأسلحة. ومع ذلك، فإن هؤلاء لطالما وجدوا لأنه ما دام هناك سلاح،

يجب أن يكون هناك سلاح ضدّه، وإلّا اختلّ ميزان القوى على نحو خطير.

سألت شانتال:

ـ ما شأن قريتي بذلك؟ وما هي علاقة ذلك بانتهاك الوصايا، والسرقة والجريمة، وجوهر الكائن البشري، والخير والشر؟

كَبَتْ نظرة الغريب، كأنّ حزناً عميقاً باغته:

ـ «تذكّري أني قلت لك في البداية إنني حاولت، باستمرار، أن أتدبَّر أعمالي بما يُماشي القوانين، وكنت أحسب نفسي ما يُسمّى بـــ «الرجل الصالح». ذات يوم تلقّيت، في المكتب، اتصالاً هاتفياً، كان صوت امرأة، صوتاً عذباً، لكنه خالٍ من أي انفعال، أنباني أن جماعة إرهابية اختطفت زوجتي وابنتيَّ الاثنتين، وتريد فديةً كمية كبيرة من السلاح تفوقُ ما أملك. وطلبت المرأة أن أتكتّم على الأمر، وقالت إن عائلتي لن ينالها مكروه إذا اتّبعت التعليمات التي أزوّد بها.

«قطعت المرأة المخابرة بعدما قالت لي أنها ستعاود الاتصال بي بعد نصف ساعة. وطلبتْ أن أنتظر في كشك هاتف عمومي بقرب المحطة. ذهبت إلى المكان فكرَّر الصوت ذاته طمأنتي بأن زوجتي وابنتيَّ يعاملن معاملة حسنة، وسوف يطلق سراحهن في وقت قريب. يكفي أن أرسل بواسطة الفاكس أمر تسليم بضاعة إلى أحد فروعنا. والحقيقة أنه لم يكن في الأمر سرقة، بل بيع مزيَّف يمكن إخفاؤه كلياً حتى عن الشركة، حيث كنت أعمل.

«ولكنني، كمواطن تعوّد التزام القوانين، وأحس بأنها تحميه، كنت قد أبلغت الشرطة قبل ذهابي إلى كشك الهاتف. في الدقيقة التي تلت، لم أكن سيد قراراتي، لقد استحلت شخصاً عاجزاً عن حماية عائلته، ذلك أن شبكة كاملة تأهبت لتتصرف بدلاً مني: تقنيون أكبّوا، قبلاً، على الكابل الممتد تحت الأرض إلى كشك الهاتف، لتحديد مصدر المخابرة. طائرات مروحية استعدّت

للإقلاع. سيارات الشرطة احتلّت الأماكن الاستراتيجية، جنود تدخّل باتوا على أهبة الاستعداد.

،حكومتان اثنتان، علمتا بالأمر فوراً، تباحثتا واتفقتا على رفض أي تفاوض. كل ما كان عليَّ فعله هو الامتثال لأوامر السلطات، ومنح الخاطفين الأجوبة التي تُملى عليَّ، والتصرُّف تماماً بحسب ما يشير عليَّ خبراء مكافحة الإرهاب.

،قبل نهاية النهار، هاجمت فرقة كومندوس المقرَّ، حيث احتُجزت الرهائن، وأمطرت الخاطفين بالرصاص. كانوا رجلين وامرأة شابة من غير المحترفين على ما يظهر؛ مجرد أنفار ثانويين في تنظيم سياسي قوي. ولكن قبل أن يُقضى عليهم، تمكّنوا من الإجهاز على زوجتي وابنتيَّ. إذا كان حتى للربّ جحيمه، وهو حُبُّه البشرَ، فإن لكل رجل جحيماً خاصاً به، وهو الحب الذي يكنّه لعائلته،.

صمت الرجل هنيهات: كان يخشى أن يخونه صوته، فيفضح تأثراً يجهد في إخفائه. بعد ذلك، كما لو أنه تمالك نفسه، أردف قائلاً:

ـ كان رجال الشرطة، والخاطفون يستخدمون أسلحة تنتجها مصانعي. لا أحد يعلم كيف وصلت إلى الخاطفين. ولكن ليس هذا المهمّ. المهمّ أنهم استخدموها لقتل عائلتي. بلى. فعلى الرغم من حذري، ومن حرصي الشديد على أن يجري كل شيء وفق قواعد الإنتاج والبيع الأكثر صرامةً، فمما لا شك فيه أن زوجتي وابنتيَّ الاثنتين، قضين بأداة كنت، ذات يوم، قد بعتها، أثناء غداء عمل، أقيم في مطعم فخم، إثر حديث طويل تطرّقنا فيه إلى أحوال الطقس، فضلاً عن أحوال العولمة.

مرّت هنيهات صمت أخرى. وعندما استأنف الكلام، بدا رجلاً آخر يتكلم، كأنّ لا صلة له بما يقوله:

ـ ،أعرف جيداً السلاح والقذائف التي قتلت عائلتي، وأعرف إلى

أين وجَّه القتلة طلقاتهم: إلى صميم الصدر. لا تترك الرصاصة، عند اختراقها الجسد سوى ثقب صغير. ولكن ما أن تصطدم بإحدى العظام حتى تتشظَّى إلى أربعة أجزاء تذهب في اتجاهات مختلفة، متلفةً الأعضاء الرئيسة: القلب، الكليتين، الكبد، الرئتين. وفي حال اصطدام أحد الأجزاء بشيء صلب، بفقرة مثلاً، فإنه يغيِّر اتجاهه، ويستكمل التدمير الداخلي، ويخرج، كالأجزاء الأخرى، من ثقب كبير بحجم قبضة اليد، ناثراً في الغرفة أشلاء مدمّاة من اللحم والعظام.

«يجري ذلك كله في أقل من ثانية. ثانية واحدة للموت تبدو شيئاً تافهاً، ولكن الوقت لا يُقاس على هذا النحو. أرجو أن تفهميني».

وافقت شانتال بحركة من رأسها.

ـ «تخلَّيت عن أعمالي في نهاية تلك السنة، وهِمتُ على وجهي في أرجاء العالم، باكياً ألمي بمفردي، متسائلاً كيف يمكن للإنسان أن يكون على هذه الدرجة من الإجرام. لقد فقدت أثمن ما يملكه الإنسان: الإيمان بالآخر، وضحكت وبكيت من سخرية القدر الذي أراني، على نحو عبثي تماماً، أنني كنت أداةً للخير والشر في آن.

«لقد تبدَّد كل شعور لديَّ بالرحمة، وغدا قلبي خالياً من الإحساس: أن أموت أو أعيش، سيّان عندي. ولكن ينبغي لي، قبل ذلك، ولأجل زوجتي وابنتيَّ، أن أعرف ما الذي جرى في مقر الإرهابيين. إنني أدرك أن المرء قد يُقدم على القتل بدافع الكراهية أو بدافع الحب، ولكن أن يقتل بلا سبب، وفي سبيل قضية إيديولوجية حقيرة لا أكثر، فهذا ما لا يعقل.

«من المحتمل أن تبدو، لك، هذه الحكاية بسيطة. ففي النهاية هناك أناس يقتتلون، كل يوم، من أجل المال. ولكن تلك ليست مشكلتي، فأنا لا أفكر إلاَّ بزوجتي وابنتيَّ. أريد أن أعرف ما الذي

دار في رؤوس أولئك الإرهابيين. أريد أن أعرف، إذا كان في صراع الخير والشر، جزء من الثانية يمكن للخير أن يفوز فيه.

ـ لمَ بسكوس؟ لم قريتي؟

ـ «لمَ أسلحة مصنعي بالذات، في حين أن هناك العديد من المصانع في العالم، وبعضها يعمل دون أي رقابة حكومية؟ الجواب سهل: مجرد مصادفة. كنت بحاجة إلى مكان صغير يعرف الناس فيه بعضهم بعضاً ويعيشون على وفاق. وعندما يبلغهم خبر المكافاة وحجمها، فإن الخير والشر سيتجابهان من جديد، وما حدث سابقاً سيتكرر في قريتك.

«كان الإرهابيون مطوَّقين، قبلاً، ولم يكن لديهم أيُّ أمل بالنجاة، ومع ذلك أقدموا على قتل أبرياء لإتمام طقس مضلِّل ولا جدوى منه. إن قريتك تقدِّم إليَّ ما لم أكن أملكه: إمكانية خيار، فسكانها فريسة العطش إلى المال، لأن المال يتيح لهم أن يعتقدوا بأن مهمتهم هي حماية بسكوس وإنقاذها. وفي كل حال، لديهم، فضلاً عن ذلك، القدرة على اتخاذ القرار، إذا أرادوا، بقتل الرهينة. ثمة أمر واحد يعنيني: أريد أن أعرف إذا كان هناك آخرون قد يتصرَّفون خلافاً لما ارتكبه الإرهابيون المتعطّشون للدماء.

«قلت لك في لقائنا الأول: إن تاريخ إنسان واحد هو تاريخ البشر جميعهم. وإذا كانت الرحمة موجودة، أفهم من ذلك أن القدر كان قاسياً معي لكنه قد يكون رحيماً مع آخرين. إن ذلك لا يغيِّر شيئاً مما أشعر به، ولن يعيد إليَّ عائلتي. ولكنه، في الأقل، يبعد عنّي ذلك الشيطان الذي يرافقني ويحرمني من كل أمل».

ـ ولماذا تريد أن تعرف إذا كنت قادرةً على سرقتك؟

ـ للسبب ذاته. ربّما أنت تقسمين العالم إلى جرائم خطيرة، وجرائم بسيطة لا قيمة لها. قد يكون ذلك خطأ. إن الارهابيين، برأيي، كانوا يقسمون العالم، هم أيضاً، على هذا النحو. كانوا يعتقدون بأنهم يقتلون من أجل قضية، وليس بدافع المتعة، أو الحب،

أو الكراهية، أو من أجل المال. إذا سرقت السبيكة الذهبية، يتوجب عليك أن تبرزي جنحتك لنفسك أولاً، ثم لي شخصياً. وسوف أفهم كيف برَّر القتلة، فيما بينهم، قتل أحب الناس إليَّ. لا شك في أنك لاحظت أني، منذ سنين، أحاول أن أفهم حقيقة ما جرى. لا أدري إذا كان ذلك سيمنحني السلام. ولكن لا أرى حلاً آخر.

ـ إنْ سرقتُ السبيكة، فلن تراني إلى الأبد.

للمرة الأولى، منذ نحو نصف ساعة من الحوار، ترتسم على محيّاه ابتسامة:

ـ لقد عملت في صناعة الأسلحة. وهذا ينطوي على خدمات مخابراتية.

طلب الرجل إلى شانتال أن ترافقه إلى النهر، ذلك أنه لم يكن واثقاً بمعرفة الطريق. أخذت الفتاة البندقية التي كانت قد استعارتها من صديقة لها بذريعة أنها كانت متوترة الأعصاب، إذ قالت لها: «ربما أراحني القنص قليلاً». ثم وضعت البندقية في حقيبتها القماش.

لم يتبادلا، طوال الطريق المنحدرة، أيَّ كلمة. لدى اقترابهما من النهر، توقف الرجل، وقال لها:

ـ «إلى اللقاء، إنني أفهم لجوءك إلى التأجيل غير مرة. ولكن لم يعد باستطاعتي الانتظار. كما أنني فهمت أنك في صراعك مع نفسك، كنت تودين أن تعرفيني على نحو أفضل. ها أنت تعرفينني الآن.

«أنا رجل يسير في الأرض وبصحبته شيطان. ولكي أتقبَّله أو أطرده نهائياً، ينبغي أن أحظى بإجابات عن بعض الأسئلة».

❁ ❁ ❁

٨

ضربات الشوكة المتتالية على الكأس نبّهت روّاد المقصف، المزدحم مساء يوم الجمعة، فالتفت الجميع نحو مصدر الرنين المباغت: كانت الآنسة بريم تدعوهم إلى الإصغاء. لم يسبق لهذه القرية، خلال تاريخها الطويل، أن عرفت فتاة هي مجرّد نادلة، تتمتّع بمثل هذه الجرأة. فسكت الجميع على الفور.

قالت مالكة الفندق في سرّها: «خيرٌ لها أن يكون كلامها مجزياً، وإلا صرفتها حالاً برغم الوعد الذي قطعته لجدتها بألاّ أتخلّى عنها أبداً».

قالت شانتال:

ـ اسمعوني. سأروي لكم حكاية تعرفونها، جيّداً، باستثناء زائرنا، الحاضر بيننا. بعد ذلك، سأروي لكم حكاية لا أحد يعرفها منكم باستثناء زائرنا. وعندما أنهي سرد الحكايتين، سيكون عليكم أن تقرّروا إذا كنت قد أخطأت في إفساد هذه الأمسية عليكم، وهي أمسية راحة تستحقونها بعد أسبوع من العمل المضني.

قال الكاهن في سرّه: «يا للوقاحة! إنها لا تعلم أمراً لا نعلمه نحن. وكونها فتاة يتيمة بائسة، بلا مستقبل، لن يجدي كثيراً في إقناع مالكة الفندق بإبقائها في خدمتها. في آخر الأمر، ينبغي أن نكون متفهمين، أننا، جميعاً، نرتكب خطايانا الصغيرة، يليها الندم، يوماً أو يومين، ويغفر لنا كل شيء. لا أعرف أحداً في هذه

القرية يمكنه القيام بمثل هذا العمل، ذلك أنه يحتاج إلى عنصر شاب، ولم يبق شبّان في بسكوس.

شرعت شانتال بالكلام:

ـ هناك في بسكوس ثلاثة شوارع، وساحة صغيرة فيها تمثال المسيح المصلوب، وعدد من المنازل الخَرِبة، وكنيسة ومقبرة صغيرة بقربها.

قاطعها الغريب قائلاً:

ـ لحظة واحدة من فضلك.

أخذ آلة تسجيل صغيرة من جيبه، أدارها ووضعها على الطاولة:

ـ إني مهتم بكل ما يتعلّق بتاريخ بسكوس. لا أريد أن تفوتني كلمة واحدة مما ستقولينه، وآمل ألاّ يزعجك أن أسجّل كلامك.

لا يعني شانتال إذا سجّل كلامها، وما من وقت لتضيعه. فمنذ ساعات وهي تقاوم مخاوفها، لكنها أخيراً وجدت الشجاعة لتهاجم، ولا شيء سوى ذلك.

«في بسكوس ثلاثة شوارع، وساحة صغيرة فيها تمثال المسيح المصلوب، وعدد من المنازل الخربة، ومنازل في حالة جيدة، وفندق، وصندوق بريد، وكنيسة ومقبرة صغيرة بقربها».

هذه المرة، على الأقل، استطاعت أن تعطي وصفاً كاملاً، وقد استعادت ثقتها بنفسها.

«لقد كانت، كما نعرف جميعاً، ملاذ لصوص إلى اليوم الذي نجح فيه مشرّعنا الكبير آهاب، بعد تنصيره على يد القديس سافان، بتحويلها إلى قرية لا تؤوي، اليوم، سوى رجال ونساء من ذوي الإرادة الصالحة.

«والأمر الذي يجهله زائرنا، والذي سأذكره الآن، هو الطريقة التي

اتَّبعها آهاب لتحقيق مشروعه بنجاح. لم يحاول، في أي وقت، إقناع أيٍّ يكن، نظراً لمعرفته بطبيعة البشر: إنهم يخلطون بين الشرف والضعف، وبالتالي، سوف يشكّكون بسلطانه.

«استقدم نجّارين من قرية مجاورة، وأعطاهم تصميماً لما يريد أن يبنوه، حيث ينتصب تمثال المسيح المصلوب. بعد عشرة أيام من العمل، ليل نهار، كانت جميع القطع موصولة بإحكام لتشكّل نُصْباً ضخماً منتصباً وسط الساحة، ومحجوباً بغطاءٍ عن الأنظار. دعا آهاب كل سكان القرية لكي يشهدوا الاحتفال برفع الستارة.

«بحركة احتفالية، لم تسبقها أية خطبة، جذب الغطاء عن «النُصب»: فكان عبارة عن منصّة مشنقة، كاملة التجهيز مع حبل وفتحة أرضية، وقد طُليت بشمع النحل لكي تقاوم عاديات الزمان. قرأ آهاب، مستغلاً حضور الجميع، نصوص القوانين التي تحمي المزارعين، وتشجع تربية الأبقار، وتكافىء أولئك الذين يفتتحون محالَّ تجارية جديدة في بسكوس. وأضاف ينبغي لكلّ واحد، من الآن فصاعداً، أن يجد عملاً شريفاً، أو يرحل عن القرية. واكتفى بهذا الإعلان، لم يضف كلمة واحدة عن «النُصب» الذي دشّنه. ذلك أن آهاب كان رجلاً لا يؤمن بجدوى التهديد.

«إثر الاحتفال، تريث بعض الأهلين في الساحة للتداول فيما بينهم: كان رأي الغالبية أن آهاب خُدع بالقديس، وفقد ما أُثر عنه من بأس، وأنه، باختصار ينبغي أن يُقتل. وفي الأيام التالية، دبَّر متآمرون خططاً عديدة لتنفيذ اتفاقهم هذا. ولكنهم كانوا مكرهين جميعاً على النظر إلى المشنقة وسط الساحة متسائلين: ماذا تفعل هذه هنا؟ هل نُصبت لشنق الذين يرفضون القوانين الجديدة؟ مَنْ إلى جانب آهاب ومن يقف ضده؟ أيوجد جواسيس بيننا؟

«كانت المشنقة تحملق في الناس والناس يحملقون فيها. ولم تلبث أن استحالت شجاعة المتمرّدين خوفاً. كانوا يعرفون ما ذاع

عن آهاب، من أنه لا يتهاون في تطبيق قراراته. غادر بعضهم القرية: وقرر البعض الآخر العمل في المجالات الجديدة التي اقتُرحت عليهم، لأنهم، ببساطة، ما كانوا يعرفون أين يذهبون، أو لأنهم أحسّوا الظلّ الجاثم لآلة الموت في الساحة. ومع مرور السنين حلَّ السلام الدائم في بسكوس، وغدت القرية مركزاً تجارياً كبيراً على الحدود، وشرعت بتصدير الصوف الممتاز، والقمح الفاخر.

«بقيت المشنقة في مكانها عشر سنوات. بقي الخشب صامداً، ولكن الحبل استبدل مراراً. لم تُستعمل إطلاقاً، ولم يُشز آهاب إليها أبداً، كانت صورتها تكفي لتحويل الجرأة إلى خشية، والثقة إلى شك، وحكايات ادّعاء الشجاعة إلى همسات امتثال. وعندما أيقن آهاب، بمضي عشر سنوات، أن القانون يسود بسكوس، أمر بتفكيك منصّة المشنقة واستعمال خشبها لنصب مصلوب مكانها.

سكتت شانتال هنيهاتٍ، وحده الغريب تجزأ على خرق الصمت مصفّقاً بيديه:

ـ حكاية جميلة. كان آهاب يعرف الطبيعة البشرية حق معرفتها. ليست الرغبة في الخضوع للقوانين هي التي تُلزم الجميع بما يفرضه المجتمع، بل الخوف من العقاب. كل منا يحمل مشنقة في أعماقه.

تابعت شانتال قائلة:

ـ في هذا اليوم، ونزولاً عند طلب الغريب، سأنزع هذا المصلوب وأنصب مشنقة أخرى في الساحة.

قال أحد الحاضرين:

ـ كارلوس. اسمه كارلوس. إن مناداته باسمه أكثر تهذيباً من قولكِ «الغريب».

ـ أجهل اسمه الحقيقي. فكلّ المعلومات المدوّنة على بطاقة

الفندق غير صحيحة. لم يُسدِّد حساباً بواسطة بطاقة اعتماده. إننا لا نعرف من أين جاء وإلى أين يذهب. حتى اتصاله الهاتفي بالمطار، ربما كان اتصالاً كاذباً.

التفت الجميع نحو الرجل الذي بقيت عيناه محملقتين بشانتال، التي أردفت قائلة:

ـ مع ذلك، عندما صَدَق لم تصدقوه. كان حقاً مديراً لمصنع أسلحة، وعاش سلسلة من المغامرات، وكان أكثر من شخص واحد: أباً عطوفاً ومفاوضاً عنيداً. إذ لا يسعكم، أنتم المقيمون هنا، أن تدركوا أن الحياة أكثر تعقيداً ممّا تحسبون.

قالت مالكة الفندق في سرّها: «خير لهذه الصغيرة أن تفصح، على الفور، عن مقصدها». فتابعت شانتال، كأنها سمعت ما قالته المرأة:

ـ منذ أربعة أيام أراني عشر سبائك ذهبية، أي ما يكفي لضمان مستقبل بسكوس لثلاثين عاماً مقبلة، ولإنجاز أعمال تأهيل مهمة في القرية، وإنشاء حديقة للأطفال، على أمل أن نراهم، مجدداً، يدخلون البهجة إلى حياة القرية. بعد ذلك طمر السبائك في الغابة، لا أدري أين.

اتّجهت الأنظار جميعها نحو الرجل الذي أيَّد، بإشارة من رأسه، حكاية شانتال. فتابعت قائلة:

«هذا الذهب سيصبح مُلكاً لبسكوس إذا تمّ قتل أحد المجتمعين هنا، في غضون ثلاثة أيام مقبلة. أما إذا لم يُقتل أحد، فإن الغريب سيغادر القرية مع كنزه.

«هذا كل شيء. وقد بلّغت ما ينبغي أن يبلغكم. ولم أُعِد نصب المشنقة في الساحة، تفادياً لوقوع جريمة، هذه المرة، بل ليعلّق عليها إنسان بريء، وسوف تكون تضحية هذا الإنسان عوض الرفاهية التي ستنعم بها بسكوس».

وإذ تساءل الزبائن بصمت، أومأ الغريب ثانيةً، بإشارة من رأسه، دليلاً على موافقته.

قال وهو يعيد المسجّلة إلى جيبه بعد أن أوقفها عن العمل:

ـ هذه الفتاة تجيد سرد الحكايات.

عادت شانتال إلى عملها، لكي تُنهي خدمتها. بدا الأمر كان الزمن قد توقّف في بسكوس، لا ينطق أحدٌ بكلمة، ولا يُعكّر رنينَ الكؤوس، وصوت جريان الماء في المغسلة، وعزيف الريح المتناهي من بعيد، الصمتَ المطبق.

فجأة صاح رئيس البلدية، قائلاً:

ـ سنستدعي الشرطة.

أجاب الغريب:

ـ فكرة رائعة، لا تنسَ أنني سجّلت كلَّ شيء. فأنا لم أقل سوى: «هذه الفتاة تجيد سرد الحكايات».

قالت صاحبة الفندق، بنبرة آمرة:

ـ سيّدي، أطلب منك أن تذهب الآن إلى غرفتك، وتحزم حقائبك، وتغادر القرية على الفور.

ـ لقد سدّدت سلفاً بدل إقامة أسبوع. وسوف أمكث. ولا داعيَ لاستدعاء الشرطة.

ـ ألم يساورك شك في أنّك قد تكون أنتَ من سيتعرض للقتل؟

ـ بالتأكيد، فكّرت في ذلك. ولكن إن حدث شيء من هذا القبيل، فسوف تشاركون جميعاً في جريمة قتل، ولن تحصلوا على المكافأة الموعودة.

غادر الزبائن المقصف الواحد تلو الآخر، بدءاً بالأصغر سناً. لم يبق

سوى شانتال والغريب. أخذت محفظتها، ورتّبت ثوبها، وسارت باتجاه الباب. وقبل أن تجتاز العتبة، استدارت وقالت:

ـ إنك رجل معذَّب يطالب بالثأر. قلبك ميْت، وروحك تائهة في الظلمات. إن الشيطان الذي يرافقك يبتسم، لأنك دخلت اللعبة التي خطّط لها.

ـ شكراً لأنك استجبت لطلبي، ولأنك سردت هذه الحكاية المثيرة عن المشنقة.

ـ قلت لي، في الغابة، إنك ستجيب عن بعض الأسئلة، ولكنك أعددت خطتك على نحو لا يُكافأ معه إلّا الشر. إنْ لم يُقتل أحد، فلن ينال الخير إلّا الثناء. والثناء، كما تعلم، لا يطعم الجياع، ولا ينعش المدن الآفلة. أنت لا تريد، في الحقيقة، أن تجد جواباً عن سؤال، بل أن تشهدَ ثبوتَ أمر ما تريد أن تؤمن به، وهو أن كلّ الناس أشرار.

لاحظت شانتال أن نظرة الغريب قد تغيّرت. فأردفت قائلة:

ـ إذا كان كل الناس أشراراً، فإن المأساة التي عايشتها تغدو مبرَّرة، ويصبح تقبّلك فقدان زوجتك وابنتيك أكثر سهولة. أما إذا وُجد الصالحون، فإن حياتك تغدو، عندها، شقاءً لا يُطاق، حتّى لو زعمتَ العكس. لأن القدر نصب لك شركاً وأنت تعرف أنك لم تكن لتستحقّ ما أضمره لك. ليس النور هو ما تسعى وراءه مجدداً، بل اليقين بأن وراء الظلمات لا يوجد شيء.

قال بصوت متهدّج ولكنّه متماسك:

ـ إلامَ ترمين؟

ـ إلى رهان أكثر إنصافاً. إذا لم يُقتل أحد، خلال الأيام الثلاثة، تُعطي السبائك العشر للقرية، جزاءَ استقامة أهلها.

ابتسم الغريب. فأضافت:

ـ وأنال أنا سبيكتي ثمناً لمشاركتي في هذه اللعبة القذرة.

ـ إني لست غبياً. إن قبلت هذا الاقتراح، فإن أول ما ستقدمين عليه هو إشاعة الخبر بين الجميع.

ـ إنها مخاطرة. لكني لن أفعل، أقسم بحياة جدّتي، وبخلاصي الأبدي.

ـ هذا لا يكفي. إنني لست واثقاً بقَسَمك.

ـ ستعرف بأنني لم أفعل ذلك، لأنني نصبت مشنقة جديدة في وسط القرية. سوف يكون من السهل اكتشاف أيّ حالة غش. أضف إلى ذلك، أنني إذا خرجت، غداً، في الصباح الباكر لأذيع في القرية ما قلناه الآن، فلن يصدقني أحد. فكأنني أقول بذلك، إن شخصاً ما جاء إلى بسكوس حاملاً هذا الكنز وقال: «اسمعوا جيداً، هذا الذهب ملككم أنتم سواء نفّذتم مراد الغريب أم لا». فهؤلاء، رجالاً ونساء، قد تعوّدوا العمل الشاق، والكسبَ الحلال، ولن يسلّموا تسليماً بأن ثروة طائلة هبطت عليهم من السماء.

أشعل الغريب سيكارة، واحتسى بقية ما في كاسه، ونهض عن كرسيّه. كانت شانتال تنتظر الجواب، عند عتبة الباب المشرع، وهي ترتجف من البرد.

ـ لا تحاولي خداعي. فقد تعوّدت أن أعتبر نفسي نداً لسائر البشر، تماماً مثل آهاب، صاحبك.

ـ من دون شك. لقد حظيت بموافقتك إذن.

مرة أخرى اكتفى بالموافقة، بإشارة من رأسه.

ـ ولكن اسمح لي أن أضيف أنك تؤمن، أيضاً، بأن الإنسان يمكن أن يكون صالحاً، وإلا لما احتجتَ إلى تدبير مثل هذه البدعة البلهاء لكي تقنع نفسك أولاً.

أغلقت شانتال الباب وراءها، وسلكت الشارع المقفر باتجاه غرفتها. وجَعَلَت تبكي فجأة: فعلى الرغم من تحفُّظها فإنها انجرت، آخر الأمر، هي أيضاً، إلى اللعبة. لقد راهنت على أن الناس صالحون،

بالرغم من رداءة العالم. لن تبوح لأحد بمضمون حوارها الأخير مع الغريب، لأنها، هي أيضاً، تحتاج الآن إلى معرفة النتيجة.

كان حدسها ينبئها بأنَّ خلف الستائر المسدلة للمنازل الغارقة في الظلام، عيون بسكوس كلّها تسترق النظر إليها، ولكنها لا تبالي؛ فحلك الظلام سوف يحجب عن أبصارهم دموعها الجارية على وجنتيها.

* * *



٩

عاود الرجل فتح نافذة غرفته لكي يتيح لهواء الليل البارد أن يُسكت، للحظات شيطانه.

لكن لا سبيل لتهدئة هذا الشيطان المستثار، كما لم يُستثر من قبل، بسبب ما قالته الشابة. وللمرّة الأولى، منذ سنوات طويلة، كان يلاحظ أنه يضعف، ومراراً يراه ينأى، ليعود أدراجه توّاً، لا أضعف ولا أقوى مما كان، ثمّ يحتل النصف الأيمن من دماغه، حيث مركز المنطق والتفكير. ولكنه أبداً لا يظهر مجسّداً، فكان على الرجل أن يتخيل مظهره. أعطاه كلّ هيئة ممكنة: من صورة الشيطان المعهودة بذيل وعثنون وقرنين، إلى صورة الطفلة الشقراء ذات الشعر الجعدي. لكنّه اختار، في آخر الأمر، صورة فتاة في العشرين من عمرها، ترتدي بنطالاً أسود، وقميصاً أزرق، وتعتمر «بيريه» خضراء مثبتة فوق شعرها الأسود.

كان قد سمع صوته، للمرة الأولى، في جزيرة قصدها طلباً للنسيان بعدما استقال من منصبه. كان على الشاطئ يكابد ألمه، محاولاً عبثاً إقناع نفسه بأن هذا الألم سوف يزول، عندما شهد أبهى أجمل غروب في حياته. في اللحظة ذاتها، عاوده اليأس أقوى من أيّ وقت مضى، وأغرقه في لجج نفسه العميقة. آه! كم كان يود لو أن زوجته وابنتيه يستطعن تأمُّل هذا المشهد! غالبه البكاء وأيقن أنه لن يخرج من قعر هذه البئر إلى الأبد.

في تلك اللحظة، خاطبه صوت محبّب ودود بأنه ليس وحيداً،

وبأن ثمة معنى لما حصل له. وهذا المعنى هو تماماً البرهان على أن قَدَرَ كل إنسان مكتوب سلفاً. إن المأساة تحلُّ أبداً، وما من شيء ممّا نفعله قد يُغيّر الشقاء الذي يصيبنا.

قال الصوت:

«لا وجود للخير. وليست الفضيلة سوى وجه من وجوه الرعب، عندما يفهم الإنسان ذلك يدرك أن هذا العالم هو، على الأكثر، دعابة».

وفي الحال راح الصوت، كأنه الوحيد القادر على معرفة ما يجري على الأرض، يُريه الناس الموجودين على الشاطئ. فذاك الأب الرائع، المنصرف إلى تفكيك الخيمة، ومساعدة أطفاله على ارتداء الألبسة الصوفية، كان يودّ أن يضاجع سكرتيرته، ولكنه خائف من ردّ فعل زوجته. وتلك الزوجة التي تتمنّى أن تعمل وتحقق استقلالها، كانت خائفة من زوج متسلّط، وأولئك الأطفال، أمِنَ الممكن أن يكونوا على هذه الدرجة من اللطف والتهذيب لولا خوفهم من العقاب؟ وتلك الفتاة التي تقرأ كتاباً، وحيدة تحت مظلة، خائفة في أعماقها، من احتمال بقائها عانساً. وخائف، أيضاً، ذلك الشاب الذي يرغم نفسه على تدريب مكثّف تلبية لرغبة والديه. والنادل الذي يقدّم «الكوكتيلات» الاستوائية لزبائن أثرياء، مبتسماً رغم خوفه من أن يُصرف. والفتاة الخائفة من انتقادات الجيران، ما يجعلها تعدل عن حلمها بأن تغدو راقصة، فتتابع دراسة الحقوق. والعجوز الذي يقول إنه يشعر بالصحة والنشاط مذ توقف عن التدخين والشراب، في حين أن فزعه من الموت يصفر مثل الريح في أذنيه. والزوجان اللذان يقفزان في رذاذ الأمواج، إنَّ ضحكهما يخفي خوفهما من أن يصبحا عجوزين، عليلين، لا جدوى منهما. والرجل ذو الجلد البرونزي الذي يروح ويجيء بقاربه الآلي بمحاذاة الشاطئ، مبتسماً ملوّحاً بذراعه، إنه خائف من فكرة أن توظيفاته في البورصة يمكن أن تنهار في أيّ لحظة. وصاحب الفندق الذي يراقب من

مكتبه هذا المشهد الفردوسي، ويسهر على راحة زبائنه وسعادتهم، إنه مؤزق بالخوف من أن يكتشف محصّلو الضرائب التزوير في حساباته.

كلّ الموجودين على هذا الشاطئ الرائع، هم، في نهاية هذا النهار، فريسة للخوف: خوف من العزلة، من الظلمة التي تملأ المخيَّلة بالشياطين، من يوم الحساب، من تعليقات الآخرين، من الحب والصدود، من طلب زيادة، من قبول دعوة، من الضرب في المجهول، من عدم النجاح في إتقان لغة أجنبية، من العجز عن التأثير في الآخرين، من الشيخوخة، من الموت، من أن تُرى العيوب ولا تُرى المزايا، ومن ألاّ تُرى لا العيوب ولا المزايا.

خوف، خوف، خوف. الحياة هي نظام الرعب، وظل المقصلة. همس الشيطان: «آمل أن تستعيد هدوءك؛ الكل خائفون، لست وحدك. الفرق الوحيد هو أنك مررت، قبلاً، بالأكثر صعوبة، وما كنت تخافه أكثر، قد غدا حقيقة. لم يبق عندك ما تفقده، في حين أن هؤلاء الموجودين على هذا الشاطئ يعيشون في قبضة خوف ما: بعضهم يعي ذلك والبعض الآخر يحاول تجاهله. ولكن الجميع يعرفون أن هذا الرعب، الكلّي الوجود، سوف يؤدّي في النهاية، إلى إغراقهم».

وما لا يمكن تصديقه بأيّ وجه من الوجوه هو أن كلام الشيطان، هذا، قد خفَّف عنه. كأنَّ آلام الآخرين هوَّنت عليه ألمه الخاص. ومنذ ذلك الحين غدا الشيطان حاضراً، على نحوٍ متصل، متزايد، يقاسمه حياته. ولم يكن إدراكه أنه استحوذ على روحه ليحزنه أو يُفرحه.

وبقدر تآلفه مع الشيطان، كان يحرص على أن يعرف منه المزيد عن أصل الشر، ولكن ما من سؤال لديه كان يلقى إجابة واضحة:

«من العبث أن تحاول اكتشاف علّة وجودي».

بما أن الشيطان لم يكن يتحدّث إطلاقاً عن نفسه، فقد انصرف الرجل إلى البحث عن كلّ المعلومات المتعلقة بالجحيم، فاكتشف أن في الأديان جميعها، «مكاناً للعقاب» حيث تذهب الروح الخالدة بعد ارتكابها بعض الجرائم ضِدَّ المجتمع (كل شيء يبدو وكأنه قضية مجتمعٍ وليس قضية فرد). ويفيد أحد المعتقدات أن الروح، ما إن تغادر الجسد، حتى تجتاز نهراً، وتجابه كلباً، وتدخل عبر باب ينغلق وراءها نهائياً. وإذا كان التقليد يقضي بدفن الجثث، فإن مكان التعذيب يوصف بأنه يشبه كهفاً مظلماً موجوداً في باطن الأرض، حيث تستعر نار خالدة، والبراكين دليل على ذلك. وهكذا اخترعت المخيّلة البشرية اللهب الذي يعذّب الآثمين.

إن أمتع وصف ليوم الحساب عثر عليه الرجل في كتاب عربي جاء فيه أن الروح، لدى افتراقها عن الجسد، يجب أن تعبر جسراً دقيقاً كحدّ الموسى، الجنة إلى يمينه، وإلى يساره سلسلة من الدوائر تقود إلى الظلمة الباطنية للأرض. وقبل عبور الجسر، يحمل كل واحد فضائله باليد اليمنى، وخطاياه باليد اليسرى. وفقدان التوازن يوقعه في الجهة التي جذبته أعماله (في الحياة الدنيا) إليها(*).

وتذكر المسيحية مكاناً تُسمع فيه أصوات تأوّهات وصرير أسنان. وترجع اليهودية إلى كهف داخلي لا يتسع إلّا لعدد محدّد من الأرواح، لأن الجحيم سيمتلئ يوماً وينتهي العالم. ويذكر الإسلام ناراً تهلكنا جميعاً، إلا إذا شاء الله عكس ذلك. والجحيم، لدى الهندوس، لن يكون أبداً سوى مكان للعذاب الأبدي، لأنهم يعتقدون بأن الروح تتقمّص بعد وقت، لكي تكفّر عن ذنوبها في المكان ذاته الذي ارتكبت فيه تلك الذنوب، أي في الحياة الدنيا.

(*) يعود الكاتب، في هذا المقطع، إلى أحد كتب التفسير الإسلامية دون أن يذكر اسم الكتاب واسم واضعه. ومن الواضح أن المفسّر يتناول ما جاء في سورة «الحاقة»، ورقمها ٦٩ (المترجم).

غير أنهم يُحصون واحداً وعشرين مكاناً للتكفير عن الذنوب في حيّز درجوا على تسميته «الأراضي السفلى».

ويميّز البوذيون، من جهتهم، بين مختلف أساليب العقاب التي تنزل بالروح: ثماني جهنَّمات من نار، وثمانٍ من ثلج، فضلاً عن جحيم لا يشعر المعذَّب فيه ببرد ولا بحرّ، بل يتألّم من جوع ومن ظمأ، لا نهاية لهما.

بيد أن لا شيء يمكن أن يُقارن بتلك «التشكيلة» الغنية من الجهنمات في المعتقدات الصينية. فخلافاً للأمور التي ذكرت عن الأديان الأخرى، والتي تجعل الجحيم في باطن الأرض، فإن أرواح الآثمين تذهب إلى جبل يُسمى السور الحديدي الصغير الذي يحيط به سور آخر، هو السور الكبير، وبين السورين توجد ثماني جهنمات كبيرة بعضها فوق بعض، وتسيطر كل واحدة منها على ست عشرة جهنماً صغيرة تسيطر، بدورها، على عشرة ملايين جهنم تحتية. وفضلاً عن ذلك، فإن الصينيين يقولون إن الشياطين مكوّنون من أرواح أولئك الذين أنهوا مدة العقوبة. وفوق ذلك، هم أول من أوضح، على نحو مقنع، أصل الشياطين: إنهم أشرار لأنهم عانوا من الشر بأنفسهم، ويريدون، الآن، بثّه في الآخرين، وِفْق حلقة من الانتقام الأبدي.

قال الغريب في سرّه مستذكراً أقوال الآنسة بريم: «ربما كانت هذه هي حالتي بالذات». وقد سمع الشيطان تلك الأقوال أيضاً، وشعر بأنه تقهقر قليلاً عمّا احتلّه بصعوبة، والسبيل الوحيد أمامه لاسترداد ما فقده هو محو أي أثر للشكّ في ذهن الغريب.

قال الشيطان:

«لقد راودك الشكُّ للحظة بلا ريب، ولكن الخوف مستمر.

أحببت حكاية المشنقة كثيراً، إنها ذات دلالة: فالناس صالحون لأن الخوف يستبد بهم، ولكن جوهرهم هو جوهر شرير، فهم، كلّهم ذريّتي.

ارتجف الغريب من البرد، ولكنه قرَّر أن يدع النافذة مشرعة، لبعض الوقت.

ـ يا إلهي، لم أكن أستحق ما حدث لي.

ارتعد الشيطان، ولكنه تجنَّب الكلام، فهو لا يستطيع أن يعترف بأنه، هو أيضاً، كان عرضة للخوف. إن الرجل يجدّف، ويبرّر تصرفاته. ولكنها المرة الأولى خلال سنتين، المرّة الأولى التي يسمعه الشيطان فيها مخاطباً السماء.

إنها علامة غير مطمئنة.

* * *

١٠

إنها علامة مُطَمئِنة. تلك كانت أولى خواطر شانتال التي أيقظها بوق سيارة الفرَّان. علامة على أن الحياة في بسكوس ما زالت مستمرَّة على رتابتها وخبزها اليومي، وأن الناس سيخرجون وأمامهم يوما السبت والأحد بأكملهما، للتداول في أمر الاقتراح الجنوني الذي عُرض عليهم؛ ويوم الإثنين، سوف يشهدون، بشيء من الحسرة، رحيل الغريب. سوف تتحدّث إليهم، مساء ذلك اليوم بالذات، عن الرهان الذي قامت به، معلنة أنهم كسبوا المعركة وأصبحوا أثرياء.

كان من المستحيل، طبعاً، أن تتحوَّل قديسة، على غرار القديس سافان. ولكن الأجيال المقبلة كلّها سوف تذكرها بوصفها المرأة التي أنقذت القرية من الزيارة الثانية للشرير. وربما نسجت تلك الأجيال أساطير عنها، لم لا؟ وسوف يصفها سكان القرية، في المستقبل، بأنها امرأة فائقة الجمال، وحدها لم تترك بسكوس في صباها، لأنها كانت تعلم أنه سيتوجّب عليها إنجاز مهمَّة لأجلها. وستوقد سيدات تقيَّات الشموع لذكراها، ويتحسَّر شبان لأنهم لم يعرفوها.

لم يسعها إلّا أن تكون فخورة بنفسها. ولكنها تذكَّرت بأن عليها أن تصون لسانها، فلا تشير إلى السبيكة التي تخصُّها، وإلاّ فقد يقنعها الناس بتقاسم حصتها، إذا كانت تريد أن يُعترف بها قديسة.

لقد ساعدت الغريب، بأسلوبها الخاص، على كسب الخلاص

لروحه. وستكون هذه شفاعته يوم القيامة. لم تكن مكترثة لمصير ذاك الرجل: ليس أمامها سوى أمر واحد، وهو أن ينقضي اليومان المقبلان بأسرع وقت ممكن، دون أن تُستدرَج إلى الكشف عن السر الذي يضيق به صدرها.

لم يكن سكان بسكوس أفضل أو أسوأ من سكان القرى والبلدات المجاورة، ولكنهم كانوا عاجزين حقاً عن ارتكاب جريمة من أجل المال. أجل، إنها موقنة بذلك. والآن، وقد أصبحت الحكاية شائعة، لا يستطيع أحد أن يقدم على مبادرة منفردة: أولاً، لأن المكافأة سوف تُقسَّم إلى حصص متساوية، وهي لا تعرف شخصاً يمكن أن يُقدم على المجازفة للاستئثار بما يعود للآخرين؛ وثانياً، لأنهم إذا صمَّموا على الإتيان بما لا تراه معقولاً، فسيتوجَّب عليهم الاعتماد على تواطؤ تام لا شائبة فيه، وربَّما استُثنيت الضحية المختارة. وإذا صوَّت شخص واحد ضد المشروع ـ ستكون هي ما لم يكن هناك آخر ـ فإن رجال بسكوس ونساءها قد يتعرضون لافتضاح أمرهم وسجنهم. وخير للإنسان أن يكون فقيراً وشريفاً من أن يكون ثرياً في السجن.

تذكَّرت شانتال، وهي تهبط السلَّم، أن انتخاباتٍ بسيطة لرئيس بلدية في بلدة صغيرة مثل بسكوس، بشوارعها الثلاثة وساحتها الصغيرة، يثير مجادلات ملتهبة، وانقسامات داخلية؛ فعندما أرادوا إنشاء حديقة للأطفال، نشبت مثل تلك الخلافات، قبل بدء العمل: فاحتج البعض بعدم وجود أطفال في بسكوس، وارتأى البعض الآخر جهاراً أن وجود الحديقة سيعيدهم إلى القرية عندما يشاهد آباؤهم، الذين يأتون لقضاء إجازاتهم، ما تحقق من منجزات. الجدال في بسكوس تقليد راسخ: حول نوعية الخبز، وقوانين الصيد،

ووجود الذئب الملعون أو عدم وجوده، وتصرّفات برتا الغريبة، وطبعاً، مواعيد الآنسة بريم السرية مع بعض زبائن الفندق، على الرغم من أن أحداً لم يجرؤ على تناول هذا الموضوع، أمامها، إطلاقاً.

سارت شانتال باتجاه الشاحنة الصغيرة، يراودها الشعور بأنها، للمرَّة الأولى في حياتها، تضطلع بالدور الرئيسي في تاريخ القرية. فإلى اليوم، لم تكن سوى اليتيمة البائسة، والفتاة التي لم تجد من يتزوّجها، والنادلة الفقيرة التعسة الباحثة عن أصدقاء. لكن انتظارهم سوف يثمر. فبعد يومين لا أكثر، سيأتي الجميع إليها ليقبلوا قدميها، ويقدّموا لها الشكر على ما غنموه من ثراء وبحبوحة. وربما طلبوا إليها أن ترشّح نفسها للانتخابات البلدية المقبلة (ولم لا تبقى بعض الوقت في بسكوس لكي تتمتّع بمجدها الطارف؟).

تحلَّق قرب شاحنة الفرَّان الصغير جمع من الزبائن الصامتين. التفت الجميع نحو شانتال، ولكن أحداً منهم لم يوجّه الكلام إليها.

سأل مساعد الفران:

ـ ماذا يجري هذا الصباح؟ هل مات أحد؟

أجاب الحداد (ماذا يفعل هنا في هذا الوقت المبكر؟):

ـ لا، هناك شخص مريض، ونحن قلقون بشأنه.

لم تفهم شانتال ما يجري.

خاطبها أحدهم قائلاً:

ـ أسرعي لشراء خبزك، فليس لدى مساعد الفرّان وقت يضيعه.

مدت يدها، بحركة آلية، بقطعة نقد وأخذت خبزها. أعاد لها المساعد الفكّة، وهزَّ كتفيه، كأنه يعدل، هو أيضاً، عن معرفة ما حدث، وتوجّه إلى المقود، وانطلق.

قالت تحت وطأة الخوف، وقد علا صوتها بما لا يتلاءم والجو السائد:

ـ بدوري أسأل الآن: ما الذي يجري في هذه القرية؟

قال الحداد:

ـ تعرفين جيداً ما يجري، تريدين أن نرتكب جريمة مقابل مبلغ كبير من المال.

ـ أنا لا أريد شيئاً! لم أفعل سوى ما طلبه مني ذلك الرجل! هل أصبتم جميعاً بالجنون؟

ـ أنت المجنونة. كان حرياً بك ألَّا تلعبي دور الوسيط لخدمةِ هذا المعتوه. ماذا تريدين؟ أهناك ما تكسبينه من هذه الحكاية؟ أتريدين أن تجعلي هذه القرية جحيماً، كما جاء في الحكاية التي رواها آهاب؟ أنسيت الشرف والكرامة؟

ارتعدت شانتال:

ـ بلى، لقد جُنَّ جنونكم! أيُعقل أن يأخذ أحدكم هذا الاقتراح على محمل الجد؟

قالت مالكة الفندق:

ـ دعوها وشأنها، من الأفضل أن تذهبوا لتناول طعام الفطور.

تفرَّق الجَمع بهدوء. بقيت شانتال مرتعدة، عاجزة عن الإتيان بخطوة واحدة، فيما يدها ممسكة بالرغيف بقوة. هؤلاء الذين يقضون أوقاتهم في جدال متّصل يتفقون للمرة الأولى على أمر: أنها هي المذنبة. ليس الغريب، ولا الاقتراح، بل هي، شانتال بريم، المحرِّضة على الجريمة. هل فقد العالم رشده؟

تركت الرغيف أمام بابها، وسارت باتجاه الجبل. لا تشعر بالجوع، أو بالظمأ، أو بأي رغبة. لقد أدركت أمراً، بالغ الأهمية، يفعمها بالخوف والهلع، بالرعب المطلق.

لم يُسرَّ أحد بشيء لمساعد الفزان.

من الطبيعي أن يُناقش حدث، مثل حدث ليلة أمس، وإن بنبرة مستهجنة أو هازئة. ولكن مساعد الفزان الذي درج على نشر الأقاويل في كل القرى حيث يوزِّع الخبز، غادر من دون أن يعلم ماذا جرى في بسكوس. لا شك في أن زبائنه قد التقوا، لأول مرة، هذا الصباح، ولم يكن لدى أيّ منهم الوقت الكافي لتبادل الحديث أو التعليق على الأخبار. مع أنهم كانوا، جميعاً، على علم بوقائع الأمسية في مقصف الفندق. وهذا يدلّ على أنهم تعاهدوا، دونما وعي منهم، على التزام الصمت.

أو أن ذلك يعني أن كلاّ منهم كان يأمل، في سرّه، بما لا يؤمَّل، ويتخيّل ما لا يمكن تخيّله.

نادت برتا على شانتال. كانت كعادتها جالسةً عند عتبة الباب ساهرةً على القرية بلا جدوى، لأن الخطر كان قد تسلّل إليها على أسوأ نحو.

قالت شانتال:

ـ لا رغبة لي بالثرثرة، لم أستطع، هذا الصباح، أن أفكُر، أو أتصرّف أو أقول شيئاً.

ـ حسناً. يكفي أن تنصتي إليّ. اجلسي.

من بين الذين التقتهم منذ نهوضها، كانت برتا هي الوحيدة التي عاملتها بلطف. ارتمت شانتال بين ذراعيها، ولبثتا متعانقتين هنيهة. تابعت برتا كلامها:

ـ اذهبي إلى الغابة لتنعشي أفكارك. تعرفين أن المشكلة لا تعنيك أبداً، وهم أيضاً يعرفون ذلك، ولكنهم بحاجة إلى مذنب.

ـ إنه الغريب!

ـ أنت وأنا نعرف ذلك. لا أحد سوانا. كلُّهم يريدون أن يصدِّقوا أنهم تعرّضوا لخيانة، وأنه كان عليك فضح هذه القصة من قبل، وأنك لا تثقين بهم.

ـ تعرّضوا لخيانة؟

ـ أجل.

ـ لماذا يريدون تصديق شيء كهذا؟

ـ فكّري.

فكّرت شانتال: لأنهم في حاجة إلى مذنب أو مذنبة، إلى ضحية.

قالت برتا:

ـ لست أدري كيف ستنتهي هذه الحكاية. إن سكان بسكوس قوم صالحون، وإن كانوا، مثلما قلتِ أنت، جبناء قليلاً. مع ذلك قد يكون من المستحسن أن تقضي بعض الوقت بعيداً عن بسكوس.

ـ هل تمزحين، يا برتا؟ لا أحد سيحمل اقتراح الغريب على محمل الجد. لا أحد. ثم ليس لديَّ مال، ولا مكان أذهب إليه.

هذا غير صحيح: هناك سبيكة ذهب تنتظرها. وباستطاعتها أن تحملها إلى أيِّ مكان في العالم. ولكنها ترفض مجرّد التفكير بها، مهما كلّف الأمر.

في تلك الأثناء، كما لو أنها سخرية القدر، مرَّ الرجل بهما ألقى التحية على الإمرأتين بإيماءة من رأسه، وسلك طريق الجبل كعادته في كلِّ صباح. تبعته برتا بعينيها، في حين أن شانتال كانت تحاول التثبّت من أن أحداً لم يلمحه عندما حيّاهما. قد يكون ذلك ذريعة للقول إنها شريكته، وإنهما يتبادلان إشارات مرمَّزة.

قالت برتا:

ـ يبدو مغتمّاً، إنه أمر مستهجن.

ـ ربما أدرك أن مزحته الصغيرة قد استحالت حقيقة.

ـ لا، بل هناك ما هو أبعد من ذلك. لست أدري ما هو، ولكنه مثل... لا، لا أدري ما هو.

«زوجي يعرف حتماً». هذا ما أسرّت به برتا إلى نفسها، وهي متضايقة من الشعور بوجود أحد إلى الجهة اليسرى منها، ولكن الوقت ليس ملائماً للثرثرة معه.

قالت:

ـ أتذكَّر آهاب، وأتذكَّر حكاية رواها.

ـ لا أريد أن أسمع أيَّ ذِكْرٍ لآهاب. يكفيني ما أقاسيه من هذه الحكايات كلها! أريد، فقط، أن يعود العالم مثلما كان، وألاّ تتعرض بسكوس، برغم عيوبها، للدمار بسبب جنون رجل!

ـ يبدو أنك تحبين هذه القرية أكثر ممّا يعتقد البعض.

كانت شانتال ترتجف. اكتفت برتا بأن طوّقتها بذراعيها: كان رأسها ملقىً على كتفها، وكأنها الإبنة التي طالما افتقدتها.

ـ أصغي إليَّ. إنها حكاية عن السماء والجحيم، كان الأهل، في الماضي، ينقلونها إلى أطفالهم، وغدت طيّ النسيان:

« كان رجل يسير، مع حصانه وكلبه، في طريق، فهبَّت عاصفة قتلت الجميع. لم يدرك الرجل، آنذاك، أنه فارق الحياة، واستأنف السير مع رفيقيه: قد يتأتّى أن الموتى يحتاجون إلى بعض الوقت لكي يدركوا مصيرهم المستجدّ...».

فكرت برتا بزوجها الذي يلح بأن تحث المرأة الشابة على الذهاب، لأنه يريد أن يسرّ إليها بأمر خطير. ربما حان الوقت ليشرح لها أنه ميْت، ولا ينبغي له أن يقطع الحكاية التي ترويها.

« تقدّم الرجل مع حصانه وكلبه، بصعوبة، عند سفح جبل، تحت شمس حارقة، كانوا يتصببون عرقاً، ويكاد الظمأ يجهز عليهم. رأى الرجل عند منعطف ما باباً رائعاً من الرخام يُفضي إلى

ساحة مرصوفة ببلاط من الذهب، في وسطها نافورة، ينبثق منها ماء بلّوري. توجّه الرجل إلى الحارس، الواقف أمام المدخل:

ـ صباح الخير.

فردّ الحارس:

ـ صباح الخير.

ـ قلْ لي، ما هذا المكان الجميل؟

ـ إنه السماء.

ـ يا لحسن طالعنا لقد بلغنا السماء! إننا نموت عطشاً.

قال الحارس، مشيراً إلى نافورة الماء:

ـ باستطاعتك، يا سيدي، أن تدخل وتشرب من الماء قدْر ما تشاء.

ـ كذلك حصاني وكلبي ظامئان.

ـ آسف، يُحظَّر دخول الحيوانات.

،كان الرجل ظمآن جداً، ولكنه لا يريد أن يشرب بمفرده. حيَّا الرجل، كاتماً خيبته، وتابع طريقه مع رفيقيه. بعد مسيرة طويلة، مُصعِّداً في دروب الجبل، بلغ مكاناً فيه باب مخلَّع على خط حديدي محاطٍ بالأشجار من جانبيه. وكان ثمة رجل نائم في ظل إحدى الشجرات، وقد غطّى وجهه بقبعته:

قال المسافر:

ـ صباح الخير.

،لم يكن الرجل نائماً، فردَّ على التحية بإشارة من رأسه.

ـ إني أموت عطشاً، وكذلك حصاني وكلبي.

ـ أترى تلك الصخور؟ في وسطها ينبوع تستطيع أن تشرب منه قدر ما تشاء.

،بعدما ارتوى هو وحصانه وكلبه، سارع بتوجيه الشكر إلى الرجل، الذي ردّ قائلاً:

ـ غدٌ متى شئت

ـ ولكن أخبرني، ما اسم هذا المكان؟

ـ السماء.

ـ السماء؟ ولكن حارس الباب الرخامي قال لي إن السماء هناك!

ـ لا، ليست السماء هناك، بل الجحيم.

ـ لم أفهم. كيف يمكن انتحال اسم السماء؟ إن مثل هذا الأمر قد يشوّش الأذهان ويلحق بكم ضرراً.

ـ إطلاقاً. للحق يقال إن ذلك يؤدّي لنا خدمة كبيرة: فهناك يلبث كل القادرين على التخلّي عن أفضل أصدقائهم...».

داعبت برتا رأس المرأة الشابة، وشعرت أن الخير والشر يخوضان، في داخله، صراعاً لا هوادة فيه.

ـ اذهبي إلى الغابة وابتهلي إلى الطبيعة كي تدلّك على المدينة التي ينبغي أن ترحلي إليها. لأن حدسي ينبئني بأنك مستعدة لهجر أصدقائك، وهجر جنّتنا الصغيرة المعزولة بين الجبال.

ـ إنك مخطئة، يا برتا، أنت تنتمين إلى جيل آخر. إنَّ دماء المجرمين، الذين سكنوا بسكوس فيما مضى، كانت أكثر كثافة، في شرايينهم، منها في شراييني. كما أن رجال بسكوس ونساءها يتحلّون بالكرامة. لو كانوا غير ذلك لشكّك بعضهم ببعض، وإلاَّ يتملّكهم الخوف.

ـ حسناً، إني مخطئة. لا بأس، افعلي ما أشير عليكِ به، اذهبي وانصتي إلى الطبيعة.

بعد أن غادرت شانتال، التفتت برتا نحو طيف زوجها لترجوه أن

يبقى هادئاً. إنها مدركة ما تفعله. لقد اكتسبت الخبرة مع العمر، وينبغي له ألاّ يقاطعها عندما تحاول أن تسدي النصح إلى من هو في مقتبل العمر. لقد تعلّمت كيف تعتني بنفسها، وها هي، الآن، تسهر على القرية.

سألها زوجها أن تلزم جانب الحذر، وألا تسدي شانتال كلَّ هذا النصح، ما دام لا أحد يدرك كيف ستكون خاتمة هذه الحكاية.

استهجنت برتا مثل هذه الملاحظة، لأنها كانت موقنة بأن الموتى يعرفون كل شيء. أليس هو، بالذات، من نبَّهها إلى الخطر الذي يهدّد القرية؟ لقد غدا هرماً، بلا ريب، واكتسب عادات جديدة، فضلاً عن عادته في تناول الحساء بالملعقة ذاتها.

ردَّ عليها الزوج بأنها هي الهرمة. لقد نسيت أن الموتى يحتفظون دائماً بأعمارهم ذاتها، وأنهم، حتى لو كانوا يعرفون بعض الأمور التي لا يعرفها الأحياء، يحتاجون إلى بعض الوقت لكي يدخلوا مقام الملائكة العلْويين. أما هو، فحديث العهد بالموت (أقل من خمس عشرة سنة). وأمامه الكثير كي يتعلّمه، وإن بات بمقدوره أن يسدي، أيضاً، بعض النصائح المفيدة.

سألت برتا: هل مقام إقامة الملائكة العلويين مكان مقبول ومريح؟ فأجابها زوجها بأنه كان مرتاحاً فيه؛ وحريّ بها، بدل أن تطرح مثل هذه الأسئلة التافهة، أن تكرس طاقتها من أجل خلاص بسكوس. إنه غير معني بخلاص بسكوس، على نحو خاص، لأنه ميت. وما من أحد بحث معه، حتى الآن، موضوع التقمص؛ لكنه سمع بأنه ممكن الحدوث. وفي مثل هذه الحالة، يتمنّى أن يعود إلى الحياة في مكان لم يعرفه في السابق. أمنيته، الغالية جداً، هي أن تعيش زوجته باطمئنانٍ وراحةٍ بقية أيامها في هذا العالم.

ردّدت برتا في سرها: «إذن، لا تحاول أن تحشر أنفك في هذه الحكاية». لم يقبل الزوج هذه النصيحة. يريد منها أن تفعل شيئاً،

مهما كلَّف الأمر. إذا انتصر الشر، ولو في قرية صغيرة منسية، فسوف يصبح قادراً على نقل العدوى إلى الوادي، والمنطقة، والبلاد، والقارة، والمحيطات، والعالم بأسره.

* * *



١١

ليس فقط أن بسكوس مجزد قرية يبلغ تعدادها مئتين وإحدى وثمانين نسمةً شانتال أصغرهم، وبرتا أكبرهم، بل إنها قرية ليس فيها سوى ستة أشخاص يستطيعون أن يزعموا أداء دور مهم في تاريخها: مالكة الفندق، المسؤولة عن راحة السياح، وكاهن الرعية، المكلَّف أرواح السكان، ورئيس البلدية، الساهر على احترام القوانين، وزوجة رئيس البلدية التي تفكر نيابة عن زوجها وتساعده في اتخاذ قراراته، والحدّاد، الذي عضَّه الذئب الملعون ونجا من الموت، ومالك معظم العقارات في محيط القرية، وهو الذي عارض إنشاء حديقة للأطفال، ليقينه بأن بسكوس ستشهد انطلاقة كبيرة، على المدى البعيد، لأنها مكان مثالي لبناء مجموعات سكنية فخمة.

لا يبالي مختلف سكان القرية إطلاقاً بما يحدث أو يكف عن الحدوث فيها، لأن لديهم خرافاً، وقمحاً، وما به يطعمون عائلاتهم. يترددون على مقصف الفندق، يشاركون في قدّاس يوم الأحد، ويحترمون القوانين، ويستفيدون من خدمات بعض الحرفيين، ويستطيعون، أحياناً، شراء قطعة أرض.

أما مالك العقارات، فلا يتردد على المقصف إطلاقاً. بيد أن إحدى العاملات لديه هي التي كانت من روّاده مساء أمس، وقد نقلت إليه حكاية ذلك الغريب نزيل الفندق، وكادت تقع في التجربة، وترزق منه طفلاً لكي ترغمه على إعطائها جزءاً من ثروته. ومن جزاء قلق مالك العقارات بشأن المستقبل، وخشيته من شيوع أقوال الآنسة

بريم ما يُبعِد الصيادين والسيّاح، دعا شخصيات بسكوس البارزة لاجتماع فوري. وبينما كانت الآنسة بريم تسلك طريق الغابة، وكان الغريب تائهاً في إحدى نزهاته الغامضة، وبينما كانت برتا مسترسلة في ثرثرتها، عقد الأعيان الستة اجتماعاً في الكنيسة الصغيرة.

بادر المالك إلى الكلام:

ـ إن الشيء الوحيد الذي ينبغي لنا فعله، هو استدعاء الشرطة. من الواضح أن هذا الذهب لا وجود له. وأنا أرى أن هذا الرجل يحاول إغواء العاملة عندي.

أجاب رئيس البلدية:

ـ إنك لا تدري ما تقول، لأنك لم تكن موجوداً هناك. إن الذهب موجود، والآنسة بريم لا تجازف بسمعتها دون برهان حسي. وأياً يكن الأمر، فينبغي أن تستدعي الشرطة. إن هذا الغريب لصّ بالتأكيد. وربَّما كان أحد المطلوبين مقابل مكافأة مالية، وهو يحاول أن يختبىء هنا غنائم سرقاته.

قالت زوجة رئيس البلدية:

ـ دعْك من هذه التفاهات. لو كان الأمر كما تقول، لكان أشد حذراً في تصرفاته.

ـ المسألة ليست هنا. يجب أن نستدعي الشرطة فوراً.

وافق الجميع. قدّم الكاهن النبيذ لتهدئة النفوس التي ألهبها النقاش. ولكن برزت مشكلة جديدة: ماذا يقولون للشرطة، وهم لا يملكون أي دليل ضد الغريب؟ قد ينتهي الأمر بتوقيف الآنسة بريم بتهمة التحريض على ارتكاب جريمة.

ـ الدليل الوحيد هو الذهب، ومن دون الذهب لا جدوى من كل هذا.

هذا بديهي. ولكن أين الذهب؟ ثمة شخص واحد شاهده، ولكنه لا يدري أين طُمر.

اقترح الكاهن تشكيل فِرَقٍ للبحث. ففتحت مالكة الفندق ستائر النافذة المطلة على المقبرة الصغيرة، وعلى المنظر المترامي للجبال على جانبي الوادي.

ـ إن ذلك يتطلّب مئة رجل، طوال مئة عام.

أسف المالك الثري، في قرارة نفسه، لجعل المقبرة في هذا المكان، فالمنظر بديع ولا يجني منه الموتى أي فائدة.

وقال مخاطباً الكاهن:

ـ في مناسبة أخرى، أودُّ أن أتحدث إليك بشأن المقبرة. أستطيع أن أقدّم للموتى مكاناً أفضل، مقابل هذه الأرض المجاورة للكنيسة.

ـ من عساه يقدم على شراء أرضٍ ليبني فيها منزلاً، ويقيم حيث يرقد الموتى؟

ـ لا أحد من أهل القرية، طبعاً. ولكن هناك أهل المدن الذين يحلمون بمنزل للعطلة مع منظر شاملٍ للجبال. يكفي أن نطلب من سكان بسكوس أن يتكتّموا على هذا الأمر، لأن المشروع سيدرّ مالاً على القرية كلّها، ناهيك بزيادة مداخيل البلدية من الضرائب.

ـ إنك على حق. يكفي أن نفرض عليهم التكتّم. لن يكون ذلك صعباً.

فجأة توقّف النقاش، كأنَّ الجميع أفحموا دفعة واحدة. وساد صمت لم يجرؤ أحد على خرقه. تظاهرت المرأتان بتأمُّل المنظر. ومرَّر الكاهن، على نحو آلي، خرقةً على تمثال من البرونز. وانصرف المالك إلى سكب كأس ثانية من النبيذ. وربط الحداد شريط حذائه من جديد. ونظر رئيس البلدية إلى ساعته، غير مرة، كأن هناك اجتماعاً آخر ينتظره.

ولكن كل منهم بدا مسمَّراً في مكانه: كلهم مدركون أن

أحداً من سكان بسكوس لن يعترض على بيع الأرض التي تحتلها المقبرة. كلّهم يغتبطون لاستقدام قاطنين جدد، على هذا النحو، إلى قريتهم المهدّدة بالزوال، من دون أي مكسب مادي. فكيف إذا كان الكسب ممكناً.

تصوّروا إذا هم كسبوا مالاً كافياً لبقية حياتهم وحياة أطفالهم...

فجأة، شعروا بِنَسَمٍ ساخن يهب على المكان. قرر الكاهن خرق الصمت المخيّم بثقله منذ بضع دقائق:

ـ ماذا تقترحون؟

التفت الحاضرون الخمسة، إليه.

وأجاب المالك الثري، مع حرصه على انتقاء كلمات قابلة للتفسير سلباً أو إيجاباً، بحسب وجهة النظر:

ـ إذا تأكدنا أن السكان لن يقولوا شيئاً، فاعتقد أن باستطاعتنا متابعة المفاوضات.

فعقّبت مالكة الفندق، حاذية حذوه في انتقاء الكلام:

ـ إنهم أناس طيّبون، كادحون، كتومون. فهذا الصباح، مثلاً، حاول مساعد الفران أن يعرف ماذا يجري، فلم ينبس أحد بكلمة. أعتقد ان بإمكاننا الوثوق بهم.

أطبق صمت جديد، ولكنه، هذه المرة، صمت طاغٍ تستحيل زحزحته. ينبغي الاستمرار في اللعبة.

أدلى الحداد بدلوه:

ـ لا تكمن المشكلة في كتمان مواطنينا، ولكن في أننا نعلم أن فِعل ذلك هو أمر لا أخلاقي، وغير مقبول.

ـ فِعلُ ماذا؟

ـ بيع أرض مقدّسة.

أطلقت تنهيدة ارتياح عام تأييداً لهذه الكلمات. فبقدورهم، الآن،

الخوض في نقاش أخلاقي، ما دام المجال مفتوحاً من وجهة النظر العملية.

قالت زوجة رئيس البلدية:

ـ اللاأخلاقي هو أن نرى قريتنا في حالة انحطاط شامل، وهو أن نعي أننا آخر من يعيش هنا، وأنَّ حلمَ آبائنا، حلمَ آهاب والسَّلتيين، سوف ينتهي بعد بضع سنوات. سوف نترك، قريباً، القرية، إما لنذهب إلى مأوى العجزة، وإما لنتوسّل إلى أولادنا لكي يعتنوا بشيوخ مرضى، ضعاف العقول، محزونين، لأنهم لم يعرفوا أن ينقلوا إلى الجيل المقبل الإرث الثمين الذي ورثناه عن آبائنا.

ـ رذدوا في سرّهم: «أنت محقّة، فما ليس بأخلاقي هو هذه الحياة التي نعيشها. وعندما تغدو بسكوس خراباً، تصبح هذه الأراضي مهملة أو معروضة للبيع تلقاء كسرة خبز. وتأتي جزافات ضخمة لشق محاور للأوتوسترادات. ستهدّم المنازل الأخيرة، وتحلّ مخازن فولاذية محلَّ كلّ ما شيَّده أجدادنا بعرق جباههم. وسوف يُعمَل على مكننة الزراعة. أما المستثمرون فيقيمون في أماكن أخرى بعيدة، ويكتفون بالحضور لتزجية النهار في أملاكهم. أيُّ عار لجيلنا! لقد تركنا أولادنا يرحلون، لأننا عجزنا عن إبقائهم إلى جانبنا.

ـ ينبغي لنا إنقاذ هذه القرية مهما يكن الثمن.

قالها المالك الثري، المستفيد الوحيد، من دون شك، من انحطاط بسكوس، لأنه يستطيع شراء كل شيء، ثم بيعه لشركة كبيرة، محققاً أرباحاً طائلة. ولكن، حتى في هذه الظروف، ليس من مصلحته بيع أرض ربّما دُفن فيها كنز أسطوري.

سألت مالكة الفندق:

ـ ما رأيك، يا سيدي الكاهن؟

ـ الشيء الوحيد الذي أعرفه جيداً، هو ديني: لقد علّمنا أن التضحية بشخص واحد قد أنقذ البشر جميعاً.

توقف عن الكلام قليلاً، ليتبيَّن تأثير كلامه. وبما أن الآخرين لم يكن لديهم، على ما يبدو، ما يقولونه، تابع قائلاً:

ـ يجب أن أستعدّ للقدّاس. لِمَ لا نلتقي عصراً؟

مع شعورهم بالارتياح، وتشنُّجهم المفاجئ كأنَّ لديهم عملاً مهماً يريدون القيام به، اتّفقوا على تحديد موعدٍ لاجتماع جديد. وحده رئيس البلدية بدا محتفظاً بهدوئه، واختتم الاجتماع فيما يهمّ بالمغادرة، قائلاً بنبرة حاسمة:

ـ إن ما قلته، يا سيدي الكاهن لمهمّ جداً، ولعلّه موضوع مهم لموعظتك، أعتقد أن من المتوجّب أن نذهب جميعاً إلى قدّاس اليوم.

* * *

١٢

سارت شانتال بخطى واثقة باتجاه الصخرة التي لها هيئة Y ، وهي تفكّر بما سوف تفعله لدى حصولها على السبيكة. سوف تعود أدراجها إلى غرفتها، فتبدّل ملابسها، وتأخذ أوراقها ومالها، ثمَّ تهبط إلى الطريق لتستوقف إحدى السيارات. لقد قُضي الأمر: هؤلاء الناس لا يستحقّون الثروة التي كانت، في متناولهم. لا حقائب: لأنها لا تريد أن يعرفوا بأنها راحلة نهائياً عن بسكوس. بسكوس بأساطيرها الجميلة ولكنْ غير المجدية، وبسكانها الطيّبين جداً لكن الجبناء، ومقصفها المزدحم كل مساء حيث يكرّر الزبائن الحكايات نفسها، والكنيسة التي لا ترتادها البتّة. أبعدت من ذهنها احتمال أن يكون الغريب قد فضح أمرها، وأن تكون الشرطة، بانتظارها على الطريق. صارت مستعدة، من الآن فصاعداً، لخوض شتّى المخاطر.

أما الكراهية التي شعرت بها قبل نصف ساعة، فقد أخلت مكانها لغريزة أكثر عذوبة: شهوة الانتقام.

كانت تشعر بالغبطة لأنها هي التي جعلت أولئك الناس يرون، للمرّة الأولى، الشرّ الكامن في قرارة نفوسهم الساذجة والخيِّرةِ زوراً. كلهم يحلمون بارتكاب جريمة. والواقع أنهم يحلمون فحسب، لأنهم لن ينتقلوا إلى الفعل إطلاقاً. ومن شانهم أن يناموا ما تبقّى من أعمارهم البائسة، مرددين أنهم شرفاء عاجزين عن الظلامة، مستعدّون للدفاع، بأيّ ثمن، عن كرامة القرية. ولكن مع

إدراكهم أن الخوف، وحده، قد حال دون قتلهم رجلاً بريئاً. ومن شأنهم أن يتباهوا كلّ صباح بحفاظهم على استقامتهم متبادلين التهم، كل مساء، لأنّهم فوّتوا على أنفسهم فرصة العمر.

لن تدور الأحاديث في المقصف، خلال الأشهر الثلاثة المقبلة، إلا حول موضوع واحد: نبل سكان بسكوس الشجعان. بعد ذلك، ومع بداية موسم الصيد، يتوقّفون عن الحديث عنه لبعض الوقت، لأن لدى الغرباء أسلوباً آخر في النظر إلى الأمور، فهم يحبّون أن يشعروا بأنهم في مكان منعزل، حيث تسود الصداقة والخير والطبيعة المعطاءة، وحيث للمنتوجات المحلية، المعروضة في دكان صغير تسمّيه مالكة الفندق «بوتيك»، طَعْم المودَّة الغامرة.

ولكن، فور انتهاء موسم الصيد، يعود سكان القرية إلى حديثهم المفضَّل. غير أنهم، لشدّة ما يؤرّقهم ضياع فرصة الإثراء، لن يكفّوا أبداً عن تخيّل ما كان ليحصل: لِمَ لم يجرؤ أحد تحت جنح الظلام، على قتل برتا، تلك العجوز، الخرفة، مقابل عشر سبائك من الذهب؟ لمَ لم يقع الراعي سانتياغو ضحية حادث صيد؟ سوف يستعرضون بهدوء أولاً، ثم بغضب جامح، كل الوسائل، التي كانت بمتناولهم.

بمضيّ عام سوف يتبادلون التهم، بنفوس مفعمة بالكراهية، لأن أحداً منهم لم يقدم على ما من شأنه أن يوفّر الثروة للجميع. وسوف يتساءلون أين أصبحت الآنسة بريم، التي لم تترك أثراً، وقد يكون الذهب معها. لن يرفقوا بها إطلاقاً، فهي تعلم جيداً كيف يجري الحديث عنها فيما بينهم: اليتيمة، الجاحدة، الفتاة المسكينة التي حرص الجميع على مساعدتها بعد وفاة جدتها، والتي حظيت بعمل في مقصف الفندق في حين أنها لم تتمكّن لا من الحصول على زوج ولا من الانتقال إلى مكان آخر، والتي تضاجع بعض زبائن الفندق، وهم، على العموم، رجال يكبرونها في السن، وتراود كل سائح عن نفسه طمعاً بإكراميات سخية.

من شأنهم أن يصرفوا بقية أعمارهم بين إشفاقهم على ذواتهم ومقتهم لها. كانت شانتال مبتهجة، فقد حظيت بثأرها. فهي لن تنسى، ما بقيت على قيد الحياة، نظراتهم لحظة تحلّقهم حول الشاحنة الصغيرة متوسلين صمتها من أجل جريمة لن يتجرأوا، بأية حال، على ارتكابها، ثمَّ ينقلبون، بعد ذلك ضدها، كأنها هي التي فضحت جبنهم، وينبغي أن تعزى تلك الغلطة إليها.

بَلَغت المكان: أمامها ينتصب حرف Y، الصخري، وبجنبه الغصن الذي استعملته لنبش التراب قبل يومين. كانت منتشيةً متمتعة باللحظة: حركة واحدة منها وتستحيل المرأة الشريفة لصّة.

هي لصّة؟ إطلاقاً. لقد استفزَّها الغريب، وها هي تردُّ له بعض ما نالها منه. إنها لا تسرق، بل تحظى بما استحقته مقابل قيامها بدور الناطق الرسمي في مسرحية هزلية فاسدة. إنها تستحق الذهب، بل أكثر منه، لأنها رأت نظرات القتلة المحتملين حول الشاحنة الصغيرة، ولأنها صرفت حياتها كلّها هنا؛ تستحقه مقابل ليالي الأرق الثلاث التي قاستها، ومقابل روحها الضائعة من الآن فصاعداً ـ هذا إذا كانت الروح موجودة ـ ومقابل ضلالها.

حفرت حيث التراب ممهَّد، وأخرجت السبيكة. وفي هذه الأثناء، أجفلت لسماعها صوتاً.

أحدٌ ما كان قد لحق بها. عاجلت، مدفوعة بغريزتها، إلى إلقاء جفنات من التراب في الحفرة، وهي تعرف أن ذلك لا ينفع شيئاً، ثم استدارت لتشرح أنها بصدد البحث عن الكنز، وأنها تعلم أن الغريب يتنزّه سالكاً هذا الدرب، وأنها لاحظت أن التراب كان منبوشاً في هذا المكان.

ولكن ما أبصرته عقد لسانها: منظر لا علاقة له بالكنوز المخبوءة، وبحوارات القرية في شأن العدالة. بل وحش متعطّش للدم.

البقعة البيضاء على الأذن اليسرى. إنه الذئب الملعون.

وقفت جامدة بين البقعة البيضاء والشجرة الأقرب إليها: من المستحيل أن تسلك هذا الدرب. لبثت جامدة، منوّمة مغناطيسياً بنظرة الحيوان؟ رأسها يغلي، أفكارها تتدافع، ما العمل؟ هل تستعين بالغصن؟ لا، إنها أضعف من أن تقدر على هجمة الذئب. هل تصعد إلى الكتلة الصخرية؟ لا، لن تكون هناك بمأمن. هل ينبغي عدم تصديق الأسطورة ومجابهة الوحش كأنه ذئب عادي منعزل عن جماعته؟ إنها مجازفة خطيرة، ولكن من الأفضل الإقرار بأن الأساطير تخفي، دائماً، جانباً من حقيقة ما.

«إنه القصاص».

قصاص جائر، شأن كل ما شهدته في حياتها.

تركت الغصن، بحركة غريزية، يقع على الأرض. وشعرت أن عليها التحرّك ببطء وهي تشبك ذراعيها على عنقها لحمايته. أسفت لأنها لم ترتدِ البنطال الجلدي، فهي تعلم أن عضّة في الساق تُفرغها من دمها في عشر دقائق. هذا ما أخبرها به الصيّادون.

فتح الذئب شدقيه وهو يطلق زمجرة مكتومة مخيفة، لم يكن ذلك مجرد تهديد، بل تأهّب للهجوم. لم تُدِرْ شانتال عينيها، وشعرت بقلبها ينبض بسرعة: لقد كشّر الحيوان عن أنيابه.

إنها مسألة وقت: فإما أن يثب عليها، وإما أن يبتعد. قررت الاقتراب من الشجرة لتتسلّقها، مدركة أن في ذلك مجازفة، فقد تصاب بعضّة منه، لكنّها ستتحمّل الألم.

فكّرت بالذهب. قالت لنفسها إنها ستعود لأخذه حالما يتاح لها ذلك. إنها مستعدّة للتحمّل في سبيل ذلك الذهب: الألم في جسدها، ونزف دمها. حاولت أن تلوذ بالشجرة.

فجأة، كما يحدث في الأفلام، تراءى لها ظلّ يرتسم على مسافة قصيرة وراء الذئب.

اشتمَّ الذئب هذا الحضور دون أن يتحرك، وكأنه مسمَّر في مكانه بفعل نظرة شانتال. راح الظل يقترب. إنه الغريب الذي اندس بين الأعشاب، منحنياً، وتقدم نحو إحدى الأشجار. وقبل أن يتسلَّقها، رمى حجراً أصاب به رأس الذئب الذي استدار بسرعة واثباً، لكن الرجل كان قد اعتلى غصناً، مبتعداً عن أنياب الحيوان.

صرخ الغريب:

ـ افعلي مثلي بسرعة!

هرعت شانتال إلى أقرب ملاذ ممكن. ونجحت، بعد جهد، في أن تعتلي بدورها أحد الأغصان. تنفَّست الصعداء. لا بأس إن فقدت الذهب، المهم أن تنجو من الموت.

كان الذئب، عند جذع الشجرة الثانية، يزمجر هائجاً. وثب مراراً محاولاً تسلّقه، ولكنْ عبثاً.

صرخت شانتال بصوت يائس:

ـ إقطع أغصاناً.. لا! ليس لرميها، بل لوقدها!

ـ أدرك الغريب ما قصدت إليه. جمع حزمة من الأغصان، ولكنه وجد صعوبة في إشعالها بولاّعته، لأن الخشب كان أخضر رطباً.

كانت شانتال تتابع حركاته بانتباه. إنها لا تكترث لمصير هذا الرجل. فبإمكانه أن يلبث هنا فريسة لذلك الخوف الذي أراد فرضه على العالم. أما هي، فلكي تنجوَ بنفسها وتتمكّن من الهروب، كان عليها أن تساعده.

صرخت به:

ـ والآن، أظهر رجولتك! فلتهبطْ وتجعل الذئب يبتعد مسافة، بواسطة الحزمة المشتعلة.

بدا الرجل مشلولاً.

ـ فلتهبطْ! بسرعة!

تحرّك الرجل هذه المرّة، راضخاً لسطوة ذلك الصوت، وهي سطوة مستمدة من الخوف، ومن القدرة على ردّة الفعل السريعة، ومن تأجيل الخوف والألم إلى وقت لاحق. قفز إلى الأرض، وهو يلوّح بالحزمة المشتعلة، دون مبالاة بالشرر الذي يتطاير ويصيب وجهه.

ـ لا تغفل عنه!

سدَّد الرجل الشعلة باتجاه الذئب الذي كان يزمجر بارزاً أنيابه.

ـ اهجمْ عليه!

خطا الرجل خطوة إلى الأمام، أتبعها بخطوة ثانية، وبدأ الذئب بالتراجع. حرَّك الشعلة، الملتهبة، دائرياً، فكفّ الذئب، فجأة، عن الزمجرة، وانكفأ هارباً بأقصى سرعته، وتوارى في طرفة عين، بين الشجيرات الكثيفة، فنزلت شانتال، بدورها، عن شجرتها.

قال الغريب:

ـ هيّا بنا، لنمضي.

ـ إلى أين؟

أيرجعان إلى القرية حيث يراهما الناس سوياً؟ ويقعان في شرك لن تسعفهما نارٌ للنجاة منه؟

ألم حادّ، مفاجىء، برقَ في ظهرها، فتهالكت على الأض، وقد جُنَّ خفقان قلبها.

ـ أشعلْ ناراً، ودعني ريثما أستعيد قواي.

حاولت أن تتحرّك، فبدرت منها صرخة كأنها طُعنت بسكين في كتفها. سارع الغريب إلى إيقاد نار كيفما اتّفق، فيما شانتال تتلوّى من شدّة الألم، فلا بدّ أنّها قد أذت نفسها وهي تتسلّق الشجرة.

قال الغريب:

ـ دعيني أدلّك موضع الألم. لا أرى أن هناكَ، أيُّ كسر، إنها رضة عضل. كنت متوترةً جداً، ولا بد أنك قمتِ بحركة خاطئة.

ـ لا تلمسني! إبق حيث أنت! لا تخاطبني!

ألمٌ، خوفٌ، خجل. كانت موقنة بأنه شاهدها تخرج الذهب من الحفرة. وكان يعلم ـ لأن الشيطان برفقته، والشياطين تسبر الأرواح ـ أن شانتال ستسرقه هذه المرة.

كما يعرف تماماً أن سكان القرية، مصممون، في هذه اللحظة بالذات، على ارتكاب الجريمة. ويعلم أيضاً أنهم لن يفعلوا شيئاً، لأنهم خائفون. لكنَّ نيّاتهم المبهمة كانت كافية ليأتي الردّ على سؤاله إيجاباً: بلى، إن الإنسان شرير للغاية. ولمَّا كان موقناً أن شانتال سوف تهرب، فإن الاتفاق الذي تمَّ بينهما، ليلة أمس، صار لاغياً. لذا يسعه أن يستأنف ترحاله في بقاع العالم، محتفظاً بكنزه كاملاً، مطمئناً إلى صواب اقتناعاته.

حاولت شانتال أن تهتدي إلى وضعية مريحة في جلوسها، ولكنْ عبثاً. إنها في حالة عجز تامة، تحولُ دون إتيانها بأبسط حركة. ستبقي النار الذئب بعيداً، ولكنها، قد تُلفت الرعاة الذين يرعون مواشيهم في القطاع. سوف يشاهدونها برفقة الغريب.

تذكَّرت أن اليوم هو السبت. وابتسمت إذ خطر لها أنَّ أهل بسكوس، في هذه الساعة، يلوذون بمنازلهم الضيقة الغاصّة بالأنتيكات الدميمة وتماثيل الجصّ المزيّنة بالأحجار الملوّنة. في العادة يسأمون، لكنهم يعتقدون أن نهاية هذا الأسبوع ربَّما أتاحت لهم فرصة للتسرية عن أنفسهم، لم تسنح منذ زمن بعيد.

ـ اصمتْ!

ـ لم أقل شيئاً.

كانت شانتال تودّ أن تبكي، لكنّها لا تريد أن تظهر أي إشارة ضعف أمام الغريب، فاستدركت دموعها.

ـ لقد أنقذت حياتك، لذا أستحق هذه السبيكة.

ـ أنا مَن أنقذ حياتك، كاد الذئب يودي بحياتك.

هذا صحيح.

أردف الغريب قائلاً:

ـ ولكن أعترف، في المقابل، بأنك أنقذت شيئاً ما في نفسي.

إنه يناور. سوف يزعم بأنه لم يفهم شيئاً، فيعطي نفسه الحقَّ في الذهاب مصحوباً بثروته كلّها. هذا كل شيء.

ولكن الغريب أضاف قائلاً:

ـ بقي اقتراح يوم أمس. كنتُ أتألّم لدرجة جعلتني محتاجاً لأن أرى الآخرين يتألّمون مثلي؛ وهذا عزائي الوحيد. أنت محقّة.

لم يكن شيطان الغريب مرتاحاً، لسماعه مثل هذا الكلام، فطلب المساعدة من شيطان شانتال، الذي لم يكن برفقة المرأة الشابة إلا منذ وقت قصير، وهو، لذلك،لا يسيطر عليها سيطرة تامة.

قالت:

ـ وهل يغيِّر هذا في الأمر شيئاً؟

ـ لا شيء. الرهان ما زال قائماً، وأعلم أني الفائز. ولكنّي أعرف البائس الذي هو أنا، وأعرف لما غدوت بائساً: لأنني مقتنع بأنني لا أستحقّ ما أصابني.

لم يبق لشانتال سوى همٍّ واحد، أن ترحل بأسرع ما يمكن. فقالت:

ـ أما أنا، فأعتقد أني أستحق سبيكتي، وسآخذها، إلا إذا منعتني. وأنصحك أن تفعل مثلي. فأنا، من جهتي، لست في حاجةٍ إلى الرجوع إلى بسكوس. سأذهب مباشرة باتجاه الطريق العام. هنا، وفي هذا الوقت، يفترق قَدَرانا.

ـ ارحلي إذا شئت. ولكن سكان القرية يتداولون، في هذه اللحظة، لاختيار الضحية.

ـ هذا ممكن. ولكنهم سيتناقشون حتى آخر المهلة. بعد ذلك تمضي عليهم سنتان، وهم يتشاجرون في شأن من يجب أن يموت.

إنهم متردّدون في ساعة الفعل، وشرسون في ساعة تجريم الآخرين. إنني أعرف قريتي. وإذا لم تعد إليها، فلن يكلّفوا أنفسهم حتى عناء المناقشة: سيقولون بأني اخترعت كل شيء.

ـ بسكوس قرية كغيرها من القرى، وما يحدث فيها يحدث في كل مكان من العالم، حيث يعيش البشر معاً، في المدن الكبرى كما الصغرى، وفي المخيمات كما في الأديرة. غير أن هذا أمر لا تدركينه، كما لا تدركين أن القدر، هذه المرَّة، كان إلى جانبي: لقد اخترت الشخص المثالي لمساعدتي، شخصاً يسعى بمظهر المرأة العاملة الشريفة، وراء الثأر لنفسه، مثلي. وبدءاً باللحظة التي لا نستطيع فيها رؤية العدو، نُلقي تبعة إحباطاتنا على من هم حولنا. إنها شهوة انتقام لا تستكين، لأنها اعتداء على الحياة ذاتها.

قالت شانتال حانقة، إذ اتّضح لها أن هذا الرجل، هذا الكائن الذي تكن له كل الكراهية، يقرأ ما في أعماق نفسها:

ـ وفِّر عليَّ محاضراتك، هيّا، لتأخذ أنت سبائكك، وأنا سبيكتي، ولنرحل!

ـ أدركت يومَ أمس، وهذه حقيقة، أنني، حين اقترحت عليك ما ينفّرني، أي القتل دون دافع، مثلما جرى لزوجتي وابنتيَّ، إنما كنت أطلب خلاصي. هل تذكرين الفيلسوف الذي ذكرتُ أقوالاً له خلال حوارنا الثاني؟ ذلك الذي قال إن جحيم الربّ يكمن، في حبّه البشرَ، لأن الوضع الإنساني يعذّبه في كل ثانية من حياته الأبدية؟ هذا الفيلسوف، ذاته، قال أيضاً: «إن الانسان بحاجة إلى أسوأ ما فيه لكي يبلغ أنبل ما فيه».

ـ لم أفهم.

ـ لم أكن أفكّر، من قبل، إلاَّ بالانتقام. وكنت أحلم مثل سكان قريتك، وأخطّط لمشاريع وهمية ليل نهار، ولم أفعل شيئاً. لفترةٍ تابعت، عبر الصحافة، أخبار الذين فقدوا أشخاصاً أعزّاء في ظروف مماثلة، والذين انتهى الأمر بهم إلى التصرّف على نحو مغاير،

تماماً، لتصرفي: شكّلوا لجان مساعدة للضحايا، أنشأوا جمعيات لفضح المظالم، وأقاموا حملات ليثبتوا أن ألم الحِداد لا يُزال، إطلاقاً، بالانتقام. وقد حاولت، بدوري، أن أنظر إلى الأمور بعينين أكثر نبلاً: فلم أنجح. أما الآن، فقد توليتُ شجاعتي بنفسي. وببلوغي هذه الخاتمة، أكتشف، هناك في قرارة الأعماق، نوراً.

قالت شانتال التي لمحت، من جهتها، بصيص ضوء:

ـ أكمل.

ـ لا أريد البرهان على أن البشر فاسدون. بل في الحقيقة، أريد البرهان على أنني، من دون قصد مني، جلبتُ على نفسي ما أصابني، لأنني شرير، ورجل فاسد أيّما فساد، وأني أستحقّ القصاص الذي أنزلته الحياة بي.

ـ من جهتي، فإنّ ما يتآكل روحي هو هذا الشعور بالعجز. لم أنجح في أن أكون صالحة كما شئتُ، ولا شريرة كما ينبغي أن أصير. أظن أن لديك الشكوك ذاتها ولكن، بلا ريب، على نطاق أوسع، وهي أن طيبتك لم تُكافأ.

كانت شانتال تستمع لنفسها بشيء من الذهول حيال تعريتها لذاتها على هذا النحو. لاحظ شيطان الغريب أن ملاك المرأة الشابة بدأ يتألق على نحو لافتٍ، وأن الموقف قد ينقلب رأساً على عقب.

همس للشيطان الآخر: «تصرَّف».

«إني أتصرَّف، ولكن المعركة قاسية».

قال الغريب:

ـ إن مشكلتك في أنك لطالما اخترت أن تكوني ضحية الظروف.

ـ أَوَتقصد أنني مثلُكَ تحديداً؟

ـ لا. لقد ثرت ضِدَّ شيء مَّا حلَّ بي. ولا أبالي كثيراً إن استحسن الناس تصرفي أم لا. أما أنت، فقد صدَّقتِ دور اليتيمة،

الحائرة، التي ترغب بأن تكون مقبولة بأيِّ ثمن. وبما أن ذلك ليس ممكناً دائماً، فقد تحوّلت رغبتك في أن تكوني محبوبة إلى ظمأ خفيٍّ للانتقام. إنك تتمنَّين، في أعماقك، أن تكوني مثل سائر أهل بسكوس، ولكن القدر أعطاك مصيراً مختلفاً. ونحن، جميعاً، نريد في أعماقنا أن نكون مثل الآخرين.

هزّت شانتال رأسها مستنكرة.

قال شيطان شانتال لرفيقه: «افعل شيئاً. مهما قالت لا، فإن روحها تفهم، وتقول أجل».

شعر شيطان الغريب بالإهانة، لأنه ليس قوياً إلى درجة تمكّنه من إسكات الرجل. أجاب رفيقه: «الكلام لا يفضي بنا إلى أيِّ مكان. دعهما يتكلّمان، لأن الحياة هي الكفيلة بجعل تصرفهما مغايراً».

قال الغريب:

ـ لا أريد مقاطعتك. أرجوك، حدّثيني أيضاً عن عدالة الله من وجهة نظرك.

تابعت شانتال كلامها بسرور بادٍ، لأنها لم تسمع المزيد من الأحاديث التي تكدّرها.

ـ «لا أدري إذا كان كلامي سيُفهم أم لا. ولكنك لاحظت، حتماً، أن بسكوس ليست قرية متدينة جداً، وإن وُجدت فيها كنيسة كسائر قرى المنطقة. ربّما لأن آهاب، بعد اعتناقه المسيحية على يد القديس سافان، كان يشكّك بنفوذ الكهنة: فبما أن غالبية السكان الأوائل كانوا مجرمين، فقد اعتبر أن دور كهنة الرعية لن يؤدّي إلّا إلى حثّهم على الجريمة، لفرط ما يقتصر على الوعيد بعذابات أبدية. فمن لا يملك ما يخسره، فلن يفكر يوماً بالحياة الأبدية.

«ما أن قَدِم إلى القرية أوّل كاهن رعية، واستقرَّ فيها، حتى أدرك آهاب أنه حيال مجازفة. ولكي يجتنب المخاطرة، فقد أقرّ أمراً من

تعاليم اليهود، هو يوم الغفران. وشاء أن يضفي عليه طابعاً طقوسياً على طريقته.

«فمرة في كل عام، كان السكان يلوذون بمنازلهم حيث يحزرون لائحتين. ثم يتوجّهون نحو الجبل الأكثر علوّاً ويقرأون اللائحة الأولى الموجّهة إلى السماء: 'يا إلهي، ها هي الخطايا التي ارتكبتها ضد قوانينك: سرقات، زنا، ظلم، وخطايا أخرى مميتة. لقد أخطأت كثيراً، واطلب منك الغفران لكثرة ما تجرأت عليك'.

«بعد ذلك، وبناء على ما ابتدعه آهاب، يخرج السكان اللائحة الثانية من جيوبهم يتلونها، أيضاً، على مسمع السماء: 'وبالمقابل، يا إلهي، إنني أتساءل: لمَ أعمل أكثر ممّا هو ضروري؟ ولمَ مرضت ابنتي رغم صلواتي؟ ولمَ سُرقتُ في حين أردت أن أكون شريفاً؟ ولمَ تألّمت بلا سبب؟'.

«بعد قراءة اللائحة الثانية، يختمون الاحتفال الطقسي: 'لمّا كان هذا اليوم هو يوم الغفران، فيسعنا أن نبقى، معاً، سنة إضافية'.

قال الغريب:

ــ الغفران للرب.

فردّت شانتال، وهي تنظر إلى البعيد:

ــ إن حوارنا يتّخذ منحى لا يروقني إطلاقاً. لم أحظَ بالكثير من الحياة لأزعم تعليمك شيئاً.

لزم الغريب الصمت.

«لا أحب هذا أبداً». هكذا ردّد شيطان الغريب في سرّه، وهو يرى نوراً ينبثق من حوله، نوراً لا يقرُّ به في أي حال من الأحوال. وكان، قبل سنتين، قد أبعد هذا النور، على شاطئ من أجمل شواطئ الأرض.

* * *

١٣

عوامل شتى طبعت حياة بسكوس، على مز العصور، بطابعها: أساطير لا تحصى، مؤثرات سلتية وبروتستانتية، تدابير اتخذها آهاب، وجود قطّاع الطرق في نواحيها. ولهذا يعتبر الكاهن أن رعيته ليست متديّنة حقاً. لا شك في أن الأهالي يشاركون في بعض الطقوس، خصوصاً الجنازات، وقداس الميلاد. لكن لم يعد يحتفل بعماد الأطفال، لعدم وجودهم؛ كما أن الزيجات باتت نادرة. بقي بعض المتزمّتين يستمعون، وحدهم، إلى القداسيْن الأسبوعييْن، اللذين يقامان يوميْ السبت والأحد، عند الحادية عشرة صباحاً. لو كان الأمر عائداً إلى الكاهن وحده، لألغى قدّاس السبت. ولكن ينبغي له أن يبرُز وجوده في بسكوس، ويُظهر أنه يؤدّي مهامه بحماسة وورع.

كانت دهشة الكاهن عظيمة، ذاك الصباح، إذ كانت الكنيسة تغصّ بالمصلّين. ولاحظ أن الأجواء لا تخلو من التوتّر. كانت القرية، بكاملها، تتزاحم على المقاعد، وحتى على منصّة الجوقة، ولم يستثنَ إلا الآنسة بريم، لخجلها ممّا قالته أمس، على الأرجح؛ والعجوز برتا التي يتّهمها الجميع بأنها ساحرةٌ، نَفورٌ من الدين.

ـ باسم الآب، والإبن، والروح القدس.

أجاب الحضور، جميعاً:

ـ آمين.

شرع الكاهن في إقامة القدّاس، بعد «الابتهال و «المجد لله».

وقرأت إحدى رسائل أعمال الرسل امرأة تقيّة، درجت على ذلك. ثم قرأ الكاهن إنجيل اليوم. إلى أن حان موعد الموعظة:

«جاء في إنجيل القديس لوقا أنه، في وقت من الأوقات، اقترب أحد الرؤساء من المسيح، وقال: «ما أعملُ، أيها المعلّم الصالح، لأرث حياة أبدية، فردَّ المسيح بهذا الجواب المفاجىء: 'لمَ تدعوني صالحاً؟ صالحٌ اللهُ، لا صالح إلّا هُو'.

«لقد انكببت، طوال أعوام، على هذه الفقرة من النص لكي أحاول أن أفهم ما قاله يسوع: أهو لم يكن صالحاً؟ وهل تأسست المسيحية، مع مثلها الأعلى في الرحمة، على تعاليم شخص كان يعتبر نفسه شريراً؟ إلى أن جاء اليوم الذي فهمت فيه أخيراً: أن المسيح، في تلك اللحظة، قد استند إلى طبيعته البشرية. فهو، كإنسان، شرير، وكإله، صالح».

توقّف الكاهن عن الكلام قليلاً ليترك للمؤمنين فسحة تأمُّل في مغزى الرسالة. إنه يكذب على نفسه: فهو لم يفهم قط قول المسيح هذا. فإذا كان المسيح، في طبيعته البشرية، شريراً، فإن كل أقواله وأفعاله تكون شريرة. غير أن هذا خوض في اللاهوت، في غير محلّه، وما عليه إلّا أن يكون مقنعاً.

«لا أريد اليوم أن أسهب في هذا الموضوع، بل أريد أن تفهموا، جميعاً، أنه يجب علينا، بما أننا بشر، قبول كوننا ذوي طبيعة دنيا وشريرة، وإذا كنا قد نجونا من العذاب الأبدي، فذلك يعود، فقط، إلى كون المسيح قد رضي أن يضحّي بنفسه لإنقاذ البشر. إن تضحية ابن الرب قد أنقذتنا، تضحية شخص واحد.

«إننا نشهد منذ سنوات، تدهور حال هذه القرية. وأعتقد، في الوقت الحاضر، أن ذلك ليس نتيجة عقاب إلهي، لسبب بسيط هو أننا نقبل، باستمرار، ما أعطي لنا دون أن نطلب، وكأننا كنا نستحق أن نفقد المكان الذي نسكن فيه، والأرض التي نزرعها،

والمنازل المبنية بأحلام أجدادنا. أخبروني، يا إخوتي، أما حان الوقت لكي نتمرّد؟».

انتهت الموعظة. وقبل استئناف القدّاس، طلب الكاهن من المؤمنين البقاء وقوفاً. لقد كان على يقين بأنه بلّغ الرسالة.

* * *



١٤

ـ لنذهب كلٌّ في طريقه، أنا مع سبيكتي الذهبية، وأنت...

قاطعها قائلاً:

ـ بل سبيكتي الذهبية.

ـ يكفيك، أنت، أن تحمل خُرجَك وتتوارى. إذا لم أحتفظ بهذا الذهب، فسوف أضطّر للعودة إلى بسكوس. سأطرد من عملي، وأوصم بالعار من قبل الأهالي. سوف يعتقد الجميع بأنني كذبت. ليس لك الحق، ولا ينبغي، ببساطة، أن تفعل بي شيئاً مماثلاً. لقد أدّيت دوري، وأستحقّ المكافأة.

وقف الغريب، وجمع بعض الأغصان، ثم جعلها حزمة وأشعلها.

ـ لن يكفّ الذئب عن خشيته من النار، أليس كذلك؟ سأعود إلى الفندق. افعلي ما ترينه صالحاً. اسرقي. اهربي، ذلك لا يعنيني. لديَّ أمر آخر، مهم، أفعله.

ـ مهلاً، لا تتركني وحدي!

ـ تعالي، إذن، معي.

نظرت شانتال إلى النار، وإلى الصخرة التي لها هيئة Y، وإلى الغريب الذي يبتعد بمشعله.

صاحت قائلة:

ـ انتظرني!

أخرجت السبيكة من الحفرة، مذعورةً. تأملتها هنيهةً ثم أعادتها

إلى مكانها، وبدورها جمعت بعض الأغصان لتجعل منها مشعلاً، وهرعت إثر الغريب. أحسَّت بكراهية لا حدود لها. لقد صادقت ذئبين في يوم واحد، ذئباً يخاف من النار، وذئباً لم يعد يعرف الخوف، لأنه فقد أغلى ما لديه، وصار يسعى كالأعمى مقوّضاً كل ما يعترض طريقه.

هرعت شانتال راكضة بأقصى سرعتها، ولكنها لم تتمكّن من اللحاق بالغريب. ربَّما توغَّل في قلب الغابة، تاركاً لمشعله أن تخبو ناره لكي يجبه الذئب بيديه العاريتين. إن رغبته في الموت لا تقل قوّة عن رغبته في القتل.

بلغت القرية، وتظاهرت بعدم سماعها نداء برتا، التقت الحشد خارجاً من القداس، مذهولة لرؤية الأهالي وقد شاركوا فيه حقاً. أراد الغريب جريمة. فكانت النتيجة أنه أعاد، إلى كنف الكاهن، كل أفراد الرعية الذين سيتوبون ويعترفون، وكأنهم يستطيعون أن يخدعوا الله.

رمقها الجميع بنظرة خاطفة، ولكن أحداً لم يوجِّه كلمة إليها. تلقت كلَّ النظرات دون أن يرمش لها جفن، لأنها تعلم بأن ليس هناك ما تلوم نفسها عليه، وليست بحاجة إلى الاعتراف. فهي ليست سوى أداة في لعبة شريرة، اتّضحت لها شيئاً فشيئاً، وباتت تزعجها أكثر فأكثر.

لاذت بغرفتها، وراحت تنظر عبر النافذة. تفرَّق الجمع. وهذا أمر مستهجن، لأنهم في العادة يشكّلون فيما بينهم حلقات موضعها هذه الساحة التي حلَّ فيها تمثال للمسيح المصلوب محلّ مشنقة. لمَ تبدو القرية مقفرة في حين أن الطقس يتحسن، وأشعة الشمس تخترق الغيم؟ والناس، بحكم وفائهم التامّ لعادتهم، يمكنهم أن يتحدثوا عن الطقس، عن الحرارة، عن المواسم. ولكنهم سارعوا بدخول منازلهم، دون أن تعرف شانتال سبباً لذلك.

لبثت قرب النافذة فترة طويلة، وهي تفكّر. وانتهت بأن قالت لنفسها إنها، بوجودها في هذه القرية، تشبه أي شخص من أهلها، في

حين أنها ترى نفسها، مختلفة مغامِرة، ورأسها زاخر بخطط المستقبل التي لم تخطر يوماً ببال هؤلاء الفلاحين.

أيُّ خجل! وفي الوقت ذاته، أيُّ راحة! إنها موجودة في بسكوس ليس لجَور القدر، بل لأنها تستحقّ ذلك، ولأنها تقبل، الآن، أن تذوب في الجمع.

لقد أخرجت السبيكة من الحفرة ثلاث مرات، ولكنها عجزت عن أخذها. ارتكبت الإثم في روحها ولكنها لم تتمكّن من تجسيده لإدراكها أنه لا يجوز اقترافه بأيّ شكل من الأشكال، لأنه لم يكن إغراء، بل كان شركاً.

ردّدت في سرّها: «لماذا شرك»؟. ثمّة شيء ينبئها بأنها رأت في السبيكة حلاّ للمسألة التي طرحها الغريب، ولكنها، بتقليبها الأمر على مختلف وجوهه، لم تتوصّل إلى اكتشاف مضمون هذا الحل.

نظر الشيطان، الذي كان قد وصل لتوّه، ناحية الآنسة بريم، التي هدّدت، منذ حين، بمزيد من التألّق: ها هي الآن تترنّح، على وشك أن تذوي. من المؤسف أن رفيقه، شيطان الغريب، ليس هنا ليشهد انتصاره.

ما لم يكن يعرفه، هو أن الملائكة لديهم، هم أيضاً، استراتيجيتهم: ففي هذه اللحظة، احتجب نور الآنسة بريم تماماً، لئلّا يثير ردَّ فعل عدوّها. إن ملاكها لا يطلب إليها سوى شيء واحد: أن تنام قليلاً لكي تستطيع أن تتحاور مع روحها من دون تدخُّل المخاوف والأخطاء التي يعشق البشر حمل عبئها كل يوم.

نامت شانتال. لقد سمعت ما كان ينبغي سماعه، وأدركت ما انبغى إدراكه.



١٥

قالت زوجة رئيس البلدية:

ـ لا نحتاج إلى الحديث عن الأرض والمقابر، سنكون واضحين.

وافقها الأعيانُ الخمسة الآخرون، المجتمعون مجدّداً في الكنيسة، وراح كلٌّ منهم يدلي بدلوه.

وقال مالك الأراضي:

ـ لقد أقنعني المحترم الكاهن بما قاله. إن الله يبرّر بعض الأفعال.

ردَّ الكاهن قائلاً:

ـ لا تكنْ متهكّماً، فإذا نظرنا من هذه النافذة، نفهم كل شيء. وإذا هبَّت ريح ساخنة، فذلك يعني أن الشيطان حاضر بيننا.

قال رئيس البلدية برغم أنه لا يؤمن بالشياطين:

ـ هذا بديهي، لقد اقتنعنا جميعاً. من الأفضل أن نتكلّم بوضوح لئلّا نضيّع وقتاً ثميناً.

فرنّت مالكة الفندق:

ـ إني أرى الأمر في غاية الوضوح. نحن نتدارس أمراً هو قبول اقتراح الغريب، أي ارتكاب جريمة.

عقّب الكاهن، وهو أكثرهم مراساً في الطقوس الدينية، قائلاً:

ـ بل تقديم أضحية.

دلَّ الصمت الذي ران بعد ذلك على أن الجميع متّفقون.

ـ الجبناء وحدهم يختبئون وراء الصمت. سنصلّي بصوت مرتفع لكي يسمعنا الله، ويعلم أننا نعمل لخير بسكوس. لنركع.

استجاب الجميع، على مضض، لأنهم كانوا يعرفون أن من غير المجدي طلب المغفرة من الله لإثم يرتكبونه، وهم مدركون شرَّ ما يرتكبون. غير أنهم تذكّروا يوم الغفران الذي استحدثه آهاب.

طلب إليهم الكاهن أن يشاركوه الصلاة:

ـ إلهنا، لقد قلت: لا أحد صالحٌ. لذا تقبَّلْنا مع عيوبنا، واغفرْ لنا باسم رحمتك اللانهائية، وحبّك اللانهائي. ومثلما غفرت للمحقّقين في محاكم التفتيش الذين أرادوا الحفاظ على طهارة كنيستك، ومثلما غفرت لأولئك الذين أهانوك وصلبوك، اغفر لنا الأضحية التي سنقدّمها إليك لإنقاذ قريتنا.

قالت زوجة رئيس البلدية، وهي تنتصب واقفة:

ـ لنبحث الآن في الجانب العملي، من الذي سيكون الأضحية ومن سيكون المنفّذ.

فردّ مالك الأراضي، الذي ضاجع المرأة الشابة منذ وقت غير بعيد ويؤرقه القلق من أن تخبر زوجته ذات يوم، قائلاً:

ـ امرأة شابة، ساعدناها كثيراً، واعتنينا بها. لقد جاءت بالشيطان إلينا، يجب أن نتصدى للشرّ بالشر، وهذه الفتاة يجب أن تُعاقب.

صوتان اثنان أيّدا هذا الاقتراح زاعميْن أن الآنسة بريم هي، إلى ذلك، الشخص الوحيد في القرية الذي لا يمكن الوثوق به إطلاقاً، والدليل: أنها تعتبر نفسها مختلفة عن الآخرين، ولا تكفّ عن القول إنها سترحل ذات يوم.

قال رئيس البلدية، مزكّياً الصوتين السابقين:

ـ والدتها ميتة، وجدتها ميتة، لا أحد سيلاحظ اختفاءها.

غير أن زوجته عبّرت عن رأي مغاير:

ـ لنفترض أنها تعرف أين يوجد الكنز، وأنها، بأية حال، الوحيدة التي رأته. ثمّ إننا، كما قلنا سابقاً، نستطيع الوثوق بها: أوَليست هي التي حملت الشر إلينا، وحثّت السكان كلّهم على اقتراف جريمة؟ ومهما يكن من أمر ما سيكون، فإن رواية فتاة تعاني عدداً لا يحصى من المشاكل لن تقارع روايتنا نحن جميعاً، وليس هناك ما نتّهم به، فضلاً عن مكانتنا.

بدا رئيس البلدية ممتعضاً، كما هي حاله كلما أدلت زوجته برأي:

ـ لِمَ تسعين إلى إنقاذها، في حين أنك لا تحبّينها.

فقال الكاهن:

ـ لقد فهمت. هذا لكي تقع المسؤولية على كاهل من حرض على وقوع المأساة. سوف تحمل هذا الوزر لبقية أيامها. وربما انتهى أمرها مثل يهوذا، الذي خان يسوع المسيح ثم انتحر. فكان ذلك عملاً يائساً وبلا جدوى ولا يكفّر عن جريمة التلميذ.

فاجأ تحليل الكاهن زوجة رئيس البلدية، لأن ما قاله هو بالضبط ما ساور تفكيرها. فالفتاة جميلة، وتراود الرجال عن أنفسهم، ولا ترضى العيش مثل الآخرين، ولا تكفّ عن الشكوى من حياتها في قرية ميزتها، برغم عيوبها، أن كلّ فرد فيها مثال الشرف والنشاط في العمل، وأن الناس يحبّون الإقامة فيها، بصرف النظر عمّا يتضح لهم، فيما بعد، من أن الدعة مملّة إذا دامت.

قالت مالكة الفندق:

ـ لا أرى أحداً آخر.

بيد أنها كانت تحس بالضيق، لأنها تعلم صعوبة الحصول على عاملة بديلة. فكّرت بعامل مياوم، أو براعٍ، ولكنهم، بمعظمهم، متزوجون. فحتى وإن كان أولادهم يعيشون بعيداً، فقد يُقدم أحدهم على فتح تحقيق حول وفاة والده. إن الآنسة بريم هي الوحيدة التي يمكن أن تختفي دون أن تترك أثراً.

لأسباب دينية، امتنع الكاهن عن الإدلاء برأيه: ألم يلعن المسيح أولئك الذين يتَّهمون شخصاً بريئاً؟ لكن الكاهن يعرف من سيكون الضحية، وعليه أن يحثَّ الآخرين على اكتشافه:

ـ إن سكان بسكوس يعملون، من الفجر إلى المساء، في كل الأوقات. لكلٍّ منهم عمل يؤديه، بمنْ فيهم تلك الفتاة البائسة التي قرَّر الشيطان استخدامها لغايات خبيثة. وبما أننا قليلو العدد أصلاً، فلا يمكننا أن نسمح لأنفسنا بخسارة ذراعين إضافيتين.

ـ في هذه الحالة، يا سيّدنا الكاهن، ليس لدينا من نضحي به. ولم يبق أمامنا سوى ظهور شخص غريب، قبل حلول هذا المساء. ولكن في ذلك أيضاً مجازفة. فمن أين لنا أن نعرف إذا كانت لديه أسرة، أو أصدقاء يسألون عنه؟ إن بسكوس قرية يحتلّ كل فرد فيها مكانه، ويعمل بكدّ.

فردّ الكاهن:

ـ لديكم الحقّ، ربما كان ما عايشناه، منذ البارحة، مجرد وهم. إن كلًّا منكم يحظى بالاحترام، والود، وله أصدقاء وأقرباء لن يقبلوا أن يُمسَّ عزيز عليهم بأذى. لذا لا أجد سوى ثلاثة ليست لهم حياة عائلية حقة: العجوز برتا، والآنسة بريم و... أنا.

ـ أتضحي بنفسك؟

ـ إن صلاح القرية أهم عندي.

تنفَّس محاورو الكاهن، الخمسة، الصعداء. لقد انجلى الموقف، كما انجلت السماء: لن تكون جريمة، بل شهادة. وفجأة زال التوتر، الذي كان سائداً في الكنيسة، وشعرت مالكة الفندق بالرغبة في تقبيل قدميْ هذا القديس.

تابع الكاهن:

ـ تبقى مسألة تحتاج إلى حل. يجب أن تقنعوا الجميع أن قتل خادم الرب ليس خطيئة مميتة.

بيد أن رئيس البلدية الذي انشغل فجاة بما يستطيع فعله بالمال: أعمال تجديد في القرية، وحملة إعلانية لجذب المستثمرين الكبار، واجتذاب المزيد من السياح، ومدُّ خطِ تلفوني جديد، عقّب قائلاً:

ـ سوف تشرح ذلك لأفراد رعيّتك.

ـ لا أستطيع أن أشرح ذلك. إن الشهداء يقدّمون أنفسهم عندما يريد الشعب قتلهم. ولكنهم لا يستطيعون التحريض على أن يُقتلوا، لأن الكنيسة تؤكد، باستمرار، أن الحياة هبة من الله. لذا عليكم أنتم أن تشرحوا لهم.

ـ لن يصدّقنا أحد منهم. وسوف يحسب الجميع أننا من أحطّ أنواع القتلة، وبأننا قتلنا رجلاً قديساً من أجل المال، مثلما فعل يهوذا بالمسيح.

فقال مالك الأراضي:

ـ لم يبقَ إذن سوى العجوز برتا.

بعد صمت طويل، تابع الكاهن قائلاً:

ـ ممّا لا شك فيه أن هذه المرأة قد عانت كثيراً منذ وفاة زوجها. وهي تقضي أيامها، منذ سنين، جالسة أمام بابها، عرضة لتقلّبات الطقس وموات الضجر. إنها تعيش على الحسرات فحسب، وأعتقد أن هذه البائسة فقدت عقلها تماماً. عندما أمرُّ، أحياناً، بمنزلها، أسمعها تحدّث نفسها.

مرة أخرى شعر الحاضرون بهبوب هواء ساخن يعبر المكان، مع أن النوافذ مغلقة.

تابعت مالكة الفندق، قائلة:

ـ لقد عاشت حياة تعسة. وإني واثقةٌ أنها قد تبذل أي شيء لتلتقي زوجها الحبيب بأسرع ما يمكن. لقد استمر زواجهما أربعين عاماً، هل تعرفون ذلك؟

جميعهم يعرفون، غير أن هذه ليست هي المسألة.

أضاف المالك قائلاً:

ـ امرأة طاعنة، بلغت ختام حياتها. وهي الوحيدة، في القرية، التي لا تقوم بأيِّ عمل مهم. سألتها ذات مرة لما تقضي وقتها في الهواء الطلق، حتى أيام الشتاء. هل تعرفون بما أجابت؟ بأنها تسهر على القرية، لكي تنذر أهلها إذا قَدِمَ الشرُّ إليها.

ـ هذا يعني أنها لم تؤدِّ واجبها على أكمل وجه.

فقال الكاهن:

ـ على العكس. فما فهمته من كلامكم أنَّ من أفسح للشرِّ أن يدخل، عليه أن يسعى لإخراجه.

لم يحمل الصمت الذي تلا الحوار، هذه المرة، أيَّ شعور بالضيق: لقد فهم الجميع أن اختيار الضحية أصبح نهائياً.

قالت زوجة رئيس البلدية:

ـ يبقى، أمر بسيط. إننا نعرف، مسبقاً، موعد تقديم الأضحية من أجل خير السكان، ونعرف من سيكون الضحية. وهكذا ستصعد روح صالحة إلى السماء، فتلقى فيها السعادة، بدل أن تبقى مكابدةً عذاب الدنيا. يبقى أن نهتدي إلى طريقة التنفيذ.

قال الكاهن مخاطباً رئيس البلدية:

ـ حاول أن تتحدَّث إلى رجال القرية. فلتدْعُهُم إلى اجتماع في الساحة، عند التاسعة مساء. أظنني أعرف كيف أنفِّذ. عُدْ إليَّ قُبَيل التاسعة، وسوف أشرح لك ذلك على انفراد.

وختم كلامه طالباً إلى السيدتين الحاضرتين أن تلازما برتا طوال الوقت الذي يستغرقه الاجتماع في الساحة، وإن كانت برتا لا تخرج في المساء، ولكنَّ الحيطة واجبة.

* * *

١٦

باشرت شانتال عملها في الوقت المحدد. وحين أبدت دهشتها لعدم وجود زبائن في المقصف، قالت لها ربة العمل شارحة:

ـ في الساحة هذا المساء، اجتماع مقتصر على الرجال. فأدركت شانتال، فوراً، حقيقة ما يجري.

سألتها مالكة الفندق:

ـ هل رأيتِ حقاً تلك السبيكة الذهبية؟

ـ أجل. كان الأحرى بك أن تطلبي منه إحضارها إلى القرية. فهو لن يتورع عن التواري إذا نال مراده.

ـ لا أظنه مجنوناً.

ـ بل إنه مجنون.

هرعت مالكة الفندق، مدفوعة بالقلق الذي ساورها فجأة، إلى غرفة الغريب، ونزلت بعد دقائق:

ـ إنه موافق. وقال إن الذهب مطمور في الغابة، وسيأتي به غداً صباحاً.

ـ لا يتوجب عليّ أي عملٍ هذا المساء، على ما أظن.

ـ بلى. يجب أن تلتزمي عقد العمل.

كانت مالكة الفندق تودُّ حقاً أن تتحدَّث عن اجتماع الكنيسة لكي ترى ردَّ فعل شانتال. غير أنها لم تدر كيف تتطرق إلى الموضوع. فقالت:

ـ لقد صُدمت بكل ما حدث. وأفهم، في الوقت ذاته، أن الناس

يحتاجون عند الضرورة، إلى التفكير مرتين وثلاثاً في ما يعتزمون فعله.

ـ قد يفكّر واحدهم عشرين مرة، بل مئة مرة، ولن يؤتى الشجاعة لتنفيذ أفكاره.

ـ هذا ممكن. ولكن إذا قرروا التنفيذ، فما عساكِ تفعلين؟

أدركت شانتال أن الغريب أقرب إلى الحقيقة منها، هي، مع أنها تعيش في بسكوس منذ زمن طويل. سيُعقد اجتماع في الساحة! ومن المؤسف ألّا تكون المشنقة موجودة.

ألحّت مالكة الفندق:

ـ ما عساك تفعلين؟

ـ لا أريد الإجابة عن هذا السؤال، حتى لو كنت أعرف ما الذي سأفعله. أقول، ببساطة، إنَّ الشر لا يأتي بالخير. لقد اختبرت ذلك بعد ظهر اليوم بالذات.

لم يكن لدى مالكة الفندق أيُّ رغبة في أن ترى سلطتها موضع تنازع. ولكنها وجدت أن من الأفضل لها عدم الخوض في نقاش مع عاملتها. فما يثير جواً من العداء قد يسبّب مشكلاتٍ في المستقبل.

ـ تشاغلي بعمل ما. هناك، دائماً ما نفعله.

وتركت شانتال وحيدة في المقصف.

لبثت الآنسة بريم هادئة، ولم تبدر منها أيُّ إشارة تدلُّ على الحنق، حتى بعد أن بلغها خبر الاجتماع في الساحة، لأن في ذلك دليلاً على بلبلة جاريةٍ في بسكوس. فهذه الفتاة تحتاج، هي أيضاً، إلى المال. إنها ترغب، حتماً، في أن تعيش حياة مختلفة، وتصبو إلى اللحاق بأصدقاء طفولتها الذين ذهبوا ليحقّقوا أحلامهم في مكان آخر.

وإذا لم تكن مستعدّة للتعاون، فقد بدت، على الأقل، غير راغبة في التدخّل.

* * *

١٧

جلس الكاهن، بعد عشاء خفيف، على أحد مقاعد الكنيسة منتظراً رئيس البلدية المتوقَّع حضوره في غضون دقائق قليلة.

راح يجيل بصره على الجدران العارية المطلية بالكلس، والمذبح الذي زينته بتواضع تماثيل صغيرة لقديسين عاشوا، في الناحية منذ زمن بعيد. وبحزن، عاودَ التفكير في أن سكان بسكوس ليسوا في غاية التديُّن، على الرغم من أن القديس سافان كان الباعث الكبير لنهضة القرية. ولكن الناس نسوْه وفضلوا العودة إلى آهاب والسلتيين، واجترار أساطير مُغرقةٍ في القدم، من دون أن يدركوا أن أمراً واحداً، أمراً بسيطاً، يكفي لخلاص البشر، هو قبول يسوع مخلّصاً.

قبل ساعات قليلة، عرض نفسه ليكون قرباناً. كانت تلك مجازفة منه، سوى أنّه مستعدٌ أن يمضي حتى النهاية، وأن يقبل التضحية بنفسه، فيما لو أن الناس كانوا أقلّ طيشاً وانقياداً.

«هذا ليس صحيحاً. إنهم طائشون، ولكن انقيادهم ليس بالأمر اليسير». بدليل أنهم حملوه، بالصمت وبهرج الكلام، على قول ما أرادوا سماعه: التضحية التي تفدي، والضحية التي تُنقذ، والانحطاط الذي يستحيل، ثانيةً، مجداً. لقد تظاهر بأن حيلة الناس ستنطلي عليه، لكنه لم يقل إلاّ ما يؤمن به.

ففي سنٍّ مبكرة أعدّ دعوته الحقّة لحياة الكهنوت. سئِمَ راهباً في الحادية والعشرين. وسرعان ما ظهر تأثيره في رعيته بفضل موهبته في الكلام، وكفاءته في إدارة أبرشيته. كان يصلّي كل مساء، ويعود المرضى، ويزور السجون، ويُطعم الجوعى، تماماً كما جاء في الكتب. وشيئاً فشيئاً، ذاع صيته في المنطقة حتى بلغ مسمع الأسقف، وهو رجل معروف بحكمته ونزاهته.

دعاه الأسقف إلى العشاء برفقة بعض الرهبان الشبّان. بعد الطعام وقف الأسقف، على الرغم من كبر سنّه وعجزه عن المشي، وقدَّم الماء لكل من المدعوين. رفض الجميع، ما عداه، بل طلب من الأسقف أن يملأ قدحه حتى جمامه.

همس أحد الرهبان بعبارات حرص على أن يسمعها الأسقف، فقال: «لقد رفضنا، جميعنا، هذا الماء، لأننا لا نرى أنفسنا جديرين بأخذه من يد هذا الرجل القديس. ثمَّة واحد من بيننا، لم يفهم أن رئيسنا بذل تضحية كبيرة بحمله هذا الكوز».

فتحدّث الأسقف بعد عودته إلى مقعده، قائلاً:

ـ تحسبون أنفسكم قديسين، لكنّكم لم تتحلّوا بتواضع التلقّي، فلم أحظَ أنا ببهجة العطاء. أمّا الباري، فقد أتاح، ببساطة، أن يتجلّى الخير.

وعيَّنه، من فوره، على رأس أبرشية مهمة.

وإذ صار الرجلان صديقين، كثرت لقاءاتهما. وفي كل مرة كان يتعرض، فيها، الكاهن لتجربة الشك، يهرع إلى من كان يدعوه «أباه الروحي»، ويتقيد في مسلكه بأجوبة الأسقف. وذات يوم، حين شعر بضيق لجهله إن كانت أفعاله ترضي الرب أم لا، ذهب إلى الأسقف يسأله. فأجابه الأسقف، قائلاً:

ـ كان إبراهيم يقبل الغرباء، وكان الربُّ راضياً، ولم يكن إيليا يحبُّ الغرباء، وكان الربُّ راضياً، وكان داود يتباهى بما يفعل، وكان الربُّ راضياً، وكان العشَّار يشعر، أمام المذبح، بالخجل لما

يفعله، وكان الربُّ راضياً. وقصد يوحنا المعمدان الصحراء، وكان الربُّ راضياً. كيف لمن هو مثلي أن يعلم ما الذي يرضي الربَّ القدير؟ إفعل ما يأمرك به قلبك، وسيكون الرب راضياً.

غداة هذا اللقاء، مات الأسقف بنوبة قلبية صاعقة. ورأى الكاهن في هذه الميتة علامة. ومنذ ذلك الحين تقيّد، حرفياً، بتلك التوصية: اتبع نداء قلبك. وراح يعطي الصدقات تارة، وتارة يتدبر للمستعطي عملاً. مرّة يلقي موعظة بالغة القسوة. ومرّة أخرى، ينشد، في الجوقة، مع المؤمنين. وفي الآونة الأخيرة بدا أداؤه لافتاً، فاستدعاه الأسقف الجديد.

كانت دهشته عظيمة، عندما تبيّن له أن الأسقف الجديد هو الراهب الذي خصّه بتلميح موارب خلال العشاء مع الأسقف الراحل.

قال الأسقف الجديد، وهو يرمقه بنظراتٍ ساخرة:

ـ أعرف أنك، الآن، على رأس أبرشية مهمّة، وأنك كنت، في السنوات الأخيرة، صديقاً حميماً لسلفي. ربما كنت طامعاً في الحلول محلّي؟

ـ لا، فلطالما كنت أطمح إلى الحكمة.

ـ إذن، لا شك في أنك، الآن، رجل ذو تجارب. ولكنني سمعت عنك حكايات غريبة: تارة تغدق العطاء، وتارة تمنع الصدقة التي أمرت بها الكنيسة.

ـ في بنطالي جيبان اثنان. وفي كل جيب ورقة دوّنت عليها حكمة، ولكنني لا أضع دراهم إلا في جيبي الأيسر.

سأله الأسقف، بدافع الفضول، عن تلك الحكم، فأجاب:

ـ على الورقة الموجودة في الجيب الأيمن كتبت: «لست سوى رماد وتراب». وعلى ورقة الجيب الأيسر: «أنا تجلّي الرب على الأرض». عندما أصادف الشقاء والظلم، أضع يدي في جيبي الأيسر وأساعد

قريبي. وعندما أصادف الكسل والخمول، أضع يدي في جيبي الأيمن، فلا أجد شيئاً لأعطيه. بهذه الطريقة، أحقق التوازن بين العالم المادي والعالم الروحي.

شكره الأسقف الجديد على هذه الصورة الجميلة للرحمة، ودعاه إلى الالتحاق برعيته، ولكنه قرَّر إعادة هيكلة الأبرشية. بعد وقت قليل، علم الكاهن أنه نُقل إلى بسكوس، وأدرك من فوره مغزى الرسالة: الحسد. لكنه وعد بخدمة الرب أيّاً يكن مكانه، وقَصَد بسكوس مفعماً بالتواضع والحماسة: إنه تحدٍّ جديدٌ يقبله.

مرت السنون. لم يفلح بمضيّ خمسة أعوام في إعادة النعاج الضالّة إلى الكنيسة، برغم الجهود التي بذلها. بسكوس قرية يحكمها شبح من الماضي، يدعى آهاب. فلم تستطع أيٌّ من مواعظه أن تبدِّد الأساطير الشائعة.

بمضيّ عشر سنوات، أدرك خطأه: فقد استبدل، بسعيه وراء الحكمة، الكبرياء. وكان إيمانه بالعدالة الإلهية من الرسوخ، بحيث أنه لم يوفَّق في الموازنة بينها وبين فن الإقناع بالحسنى. كان يحسب أنه يحيا في عالم حيث الربُّ في كل مكان، فإذا به بين بشر لا يسمحون له بالدخول.

بمضيّ خمس عشرة سنة، أدرك أنه لن يخرج من بسكوس إطلاقاً: فالأسقف غدا كاردينالاً مهمّاً، نافذ الكلمة في الفاتيكان؛ ولن يسمح، بأية حال، أن يُشيّع كاهن صغير في الريف أنه نُفي بسبب غيرة رئيسه وحسده.

وفي غضون، ذلك استسلم للواقع: فلا أحد يستطيع الصمود أمام كل هذه السنين من اللامبالاة. وفكَّر أنه، إذا ترك الأبرشية في الوقت المناسب، فقد يكون أكثر نفعاً للرب؛ ولكنه استبعد هذا القرار من رأسه نهائياً، اعتقاداً منه أن الوضع سوف يتغيَّر. بيد أنه، في الوقت الراهن، لم يعد يرتجي فائدة من شيء، إذ فقد كلّ اتصال بالعالم.

بمضيّ عشرين سنة، استيقظ، ذات ليلة، يائساً؛ فحياته كلّها ذهبت، سدى. إنه يعرف جيداً ما كان قادراً على فعله، ويعرف القليل الذي أنجزه. تذكّر الورقتين اللتين درج على وضعهما في جيبيه. واكتشف أنه كان دائماً يضع يده في جيبه الأيمن. لقد أراد أن يكون حكيماً، ولكنه لم يكن سياسياً، وأراد أن يكون عادلاً، ولم يكن حكيماً، وأراد أن يكون سياسياً، فكان وَرِعاً.

«أين رحمتك، يا إلهي؟ لمَ عاملتني مثلما عاملت أيوب؟ ألن تكون لي فرصة أخرى في الحياة؟ امنحني فرصة أخرى!».

نهض وفتح الكتّاب المقدس، مثلما تعوّد أن يفعل عندما يحتاج إلى إجابة، فوقع على مقطع العشاء السري حين طلب يسوع من الخائن أن يسلّمه إلى الجنود الذين يبحثون عنه.

لبث الكاهن ساعاتٍ، وهو يفكّر في ما قرأ: لماذا طلب من الواشي أن يرتكب إثماً؟

يقول أحبار الكنيسة: «لكي تصدق الكتب». على كل حال، لمَ حرَّض يسوع رجلاً على ارتكاب الإثم والعذاب الأبدي؟ إن يسوع لا يفعل ذلك أبداً. ولم يكن الخائن، في حقيقة الأمر، سوى ضحية، مثل يسوع ذاته. ينبغي للشر أن يظهر ويلعب دوره، لكي يستطيع الخير، في النهاية، أن ينتصر. لو لم تكن خيانة، لما كان صَلبٌ، ولما صدقت الكتب، ولما غدا الفداء مثالاً يُحتذى.

بين ليلة وضحاها حضر إلى القرية رجل غريب، لم يكن أول من يقيم فيها، ولم يولِ الكاهن أيَّ أهمية لذلك، بل لم يُقِمْ صلةً من أي نوع، بين مجيء الغريب ومغزى تضرّعه للربّ يسوع أو الفقرة التي قرأها. ولمّا سمع حكاية النموذج المأخوذ عن لوحة «العشاء السري» لليوناردو دافنشي، تذكّر أنه قرأ النصَّ ذاته في العهد الجديد، إلا أنه رأى الأمر محض مصادفة.

وعندما أبلغتهم الآنسة بريم اقتراح الغريب، أدرك، عندها، أن صلاته قد استجيبت. يجب أن يظهر الشرّ لكي يستطيع الخير أن يمسّ قلوب الناس. فلأوّل مرة، يجتمع الأعيان في الكنيسة.

«يجب أن يظهر الشر لكي يدركوا قيمة الخير. ومثل خائن الإنجيل الذي شعر بالندم بعد ارتكابه الخيانة مباشرة، سيشعر أفراد رعيته بالندم، ولا ملاذ لهم سوى الكنيسة. وهكذا تعود بسكوس، بعد سنين وسنين، مقاماً للمؤمنين».

ختم الكاهن تأمله مرتّداً: «لقد فُرض عليَّ، شخصياً، أن أكون أداة الشر، هوذا فعلُ الخشوع، الأكثر عمقاً، الذي أستطيع بذله للرب».

حضر رئيس البلدية إلى الكنيسة في الوقت المحدّد:

ـ يجب أن أعرف، يا سيدي الكاهن، ما الذي ستقترحه.

ـ دعني أدير هذا الاجتماع بأسلوبي الخاص.

تريّث رئيس البلدية قبل الإجابة: أليس هو أعلى سلطة في بسكوس؟ وهل يُعقل أن يدع غريباً يعالج، علانية، موضوعاً بهذه الأهمية؟ إن الكاهن يقيم في القرية منذ عشرين عاماً، ولكنه لم يولد فيها، ولا يجري في شرايينه دم آهاب.

ـ بالنظر إلى خطورة القضية، أرى أن أقوم، شخصياً، بمناقشتها مع السكان.

ـ كما تشاء. وهذا أفضل، لأن الأمور قد تجري على نحو سيّىء، ولا أريد أن يكون للكنيسة شأن في ذلك. سأعلمك بالخطة، وستعمد أنت إلى إعلام الأهلين بها.

ـ لا يجوز ذلك. فبما أن لديك خطة عمل، فمن الواجب، من قبيل الإنصاف والاستقامة، أن أدع لك أمر عرضها على الأهلين.

ردّد الكاهن في سرّه: «دائماً هو الخوف. فلكي تسيطر على شخص أوْهِمْهُ بأنه خائف».

❀ ❀ ❀

١٨

وصلت سيّدتا القرية إلى منزل برتا، قُبيل التاسعة مساء، فوجدتاها تَحبك الصوف في ردهتها الضيّقة.

قالت العجوز:

ـ تبدو القرية مختلفة، هذا المساء. لا أكفُّ عن سماع خطوات العابرين جيئةً وذهاباً، مع أن الشارع يكون، في العادة، مقفراً في مثل هذا الوقت.

أجابت مالكة الفندق:

ـ إنهم الرجال، في طريقهم إلى الساحة، للتداول في ما ينبغي فعله مع الغريب.

ـ لقد فهمت. غير أني لا أرى في ذلك ما يوجب البحث والتداول. فالأحرى أن نقبل اقتراح الغريب، وليغادر بعد يومين.

قالت زوجة رئيس البلدية، حانقة:

ـ إن قبول اقتراحه غير وارد.

ـ لمَ؟ فقد قيل لي إن الكاهن ألقى، اليوم، موعظة رائعة، تطرّق فيها إلى أن التضحية برجل أنقذت البشر. أيُّ سوء قد يحصل إذا قرّر سكان بسكوس بحث اقتراح الغريب باعتباره... لنقل صفقة؟

ـ نرجو ألا تكوني جادّة في كلامك.

ـ بل كلَّ الجد، فهل أخدع نفسي؟

همّت المرأتان بالانصراف، لكنّ انصرافهما كان مجازفة لا تحمد عقباها.

ـ ثمّ ما الذي جعلني أستحقّ شرف زيارتكما؟ إنها المرة الأولى.

ـ قالت الآنسة بريم إنها سمعت، قبل يومين، عواء الذئب الملعون.

وعقّبت مالكة الفندق بقولها:

ـ نعرف، جميعاً، أن حكاية الذئب الملعون ليست سوى ذريعة كاذبة اختلقها الحدّاد. يقال إنه التقى، في الغابة، امرأة من القرية المجاورة، وحاول اغتصابها، فعمد أحدهم إلى تأديبه، ولمّا عاد إلى القرية اختلق هذه الحكاية. لكننا قررنا، على سبيل الحيطة، أن نزورك للسؤال عنك، وعمّا إذا كنتِ تحتاجين إلى شيء.

ـ هنا، كل شيء على ما يرام. انظرا: إنني أحبك غطاءً للسرير، وإن كنت لا أضمن إنهاءه. فقد أموت غداً. من يدري؟

تبادلت الزائرتان نظرات خاطفة تنمّ عن مزيج من الذهولِ والضيق.

أردفت العجوز قائلة:

ـ إن الأشخاص المسنّين، كما تعلمان، معرّضون للموت المباغت. هذه سُنَّة الحياة. قد يموتون فجأة.

تنفّست السيدتان الصعداء.

ـ لم يحن الوقت، بعد، لكي تفكّري بالموت.

قالت برتا:

ـ هذا ممكن، فلكل يوم همُّه، وغداً، يوم آخر. واعلما، في مطلق الأحوال، أني قضيت معظم نهاري أفكر بالموت.

ـ وهل من سبب محدّد؟

ـ لا، في مثل سنّي، يُصبح الأمر عادةً.

شاءت مالكة الفندق أن تغيّر الموضوع، من دون تسرّع، فلا بدَّ أن الاجتماع قد انعقد في الساحة، وقد لا ينعقد لوقت طويل. لذلك سارعت إلى القول:

ـ إننا ندرك، أخيراً، أن الموت حقّ. ونحن بحاجة لأن نتعلّم كيف نواجهه بوضوح وحكمة وتسليم: وهو يشفينا، أحياناً، من آلام لا فائدة منها.

قالت برتا:

ـ إنك محقّة تماماً. هذا ما كنت أردده في سرّي طوال ما بعد الظهر. وهل تعرفان إلامَ خلصت؟ إنني خائفة، خائفة جداً من الموت. أحسب أن ساعتي لم تحن بعد.

إذ شعرت زوجة رئيس البلدية بأن وتائر حديثهن تميل إلى قدر أكبر من التشنّج، تذكّرت النقاش الذي جرى في الكنيسة حول أرض المقبرة: كان كل من الحاضرين يعبّر عن رأيه في الموضوع، وهو منشغل بأمر آخر. كم تودّ أن تعرف كيف يجري الاجتماع في الساحة، وما هي خطة الكاهن، وكيف سيكون ردُّ فعل رجال بسكوس. ما جدوى الحديث، بمزيد من الوضوح والصراحة، مع برتا؟ فبديهي ألا يقبل أحدٌ أن يدفع للموتِ مستسلماً. وهنا تكمن الصعوبة: إذا كانوا يريدون قتل هذه المرأة، وجب عليهم الاهتداء إلى طريقة لا يُضطرون معها إلى استعمال العنف الذي قد يترك أثراً يساعد التحقيق لاحقاً.

يجب أن تختفي هذه العجوز، يجب أن تختفي ببساطة. لا داعيَ لدفن جثتها في المقبرة أو رميها في الغابة: فبعدما يتثبّت الغريب من وقوع الجريمة التي اقترحها، يجب حرقها ونثر رمادها في الجبل.

سألت برتا:

ـ بِمَ تفكرين؟

أجابت زوجة رئيس البلدية:

ـ بمحرقةٍ، بمحرقةٍ عظيمةٍ تُدفىء أجسادنا وقلوبنا.

ـ لحسن الحظ أننا لسنا في القرون الوسطى. تعرفان أن بعض الأشخاص يحسبون أنني ساحرة.

لا مجال للكذب، وإلاّ فإن العجوز سترتاب. وافقت المرأتان على قولها بإشارة من الرأس.

ـ لو أننا في القرون الوسطى، لكان من الممكن حرقي من دون محاكمة: يكفي أن يقرّر أي شخص أنني مذنبة في أمر ما.

قالت مالكة الفندق في سرّها: «ما الأمر؟ هل وشى بنا أحد؟ هل سبق لزوجة رئيس البلدية أن زارت برتا وأطلعتها على كل شيء؟ هل ندم الكاهن، وجاء ليعترف إلى امرأة آثمة؟».

ـ حسناً إذاً. شكراً جزيلاً على هذه الزيارة. لقد اطمأنّ بالكما: إني بخير وفي صحة جيدة، ومستعدة لشتّى التضحيات الممكنة، بما في ذلك التقيّد بنظام غذائي غبي يكرهني على تخفيف نسبة الكوليسترول في دمي. أي أني راغبة في العيش أيضاً وأيضاً.

نهضت برتا، وفتحت الباب، مودّعة:

ـ أجل، إنني مسرورة جداً لقدومكما. والآن سأتوقّف عن الحياكة وأرقد. ولكني أصرُّ على القول إنني أومن بوجود الذئب الملعون. لذا عليكما بالحذر! إلى اللقاء!

وأغلقت الباب.

همست مالكة الفندق:

ـ إنها تعلم، ثمّة من أخبرها. هل لاحظتِ كم كان كلامها ساخراً؟ الأمر واضح: لقد أدركت أننا هنا لمراقبتها.

فأجابت زوجة رئيس البلدية، معبّرة عن ضيقها بوضوح:

ـ ليس بإمكانها أن تعلم. لن يبلغ أحدٌ حدّ الجنون الذي قد يحمله على إخطارها بكل ما يجري، إلّا إذا...

ـ إلاّ إذا ماذا؟

ـ إلا إذا كانت ساحرة بالفعل. هل تتذكّرين تلك النفحة من الهواء الساخن التي انتشرت في الكنيسة؟

ـ كانت النوافذ مغلقة.

سرت رِعدةٌ من الخوف في أوصال المرأتين، وانبثقت من الغياهبِ

قرون من الخرافات. إذا كانت برتا ساحرةً حقاً، فإن موتها، بدل أن يكون خلاصاً للقرية، فقد يكون نذيراً بدمارها الشامل.

هذا ما كانت ترويه الأساطير.

أطفأت برتا النور، وراقبت المرأتين، في الشارع، من شقٍّ في درفة النافذة. لم تكن تدري هل تضحك، أم تبكي، أم تتقبّل ببساطة، قدرها؟ ذلك أن ما أدركته بوضوح: هو أنها اختيرت لتكون الضحية.

كان زوجها قد ظهر عند فترة العصر، وكانت دهشتها عظيمة عندما رأته برفقة جدَّة الآنسة بريم. كادت برتا تستسلم لمشاعر الغيرة: ماذا يفعل مع هذه المرأة؟ ولكنها ذعرت لمّا رأت مسحة من القلق في نظرتيهما. واستبدَّ بها اليأس عندما ألحّا عليها، بعدما رويا لها ما سمعاه في اجتماع الكنيسة، أن تهرب من فورها.

أجابتهما:

ـ أتمزحان؟ كيف أهرب؟ فساقاي لا تكادان تحملانني إلى الكنيسة، وتريدان أن أجري لكي أختبىء لا أدري أين؟ أرجوكما، أعيدا تصحيح الوضع، هناك، في السماء، واشفعا لي! ما الذي جنيته من ابتهالي، للقديسين جميعاً؟

قالا موضحين إن الموقف معقّد جداً، أكثر ممّا قد تتخيّل. فالخير والشر يتجابهان باستمرار، ولا أحد يستطيع التدخّل. كما أن الملائكة والشياطين يخوضان مجدّداً، واحدةً من تلك المعارك التي تُنقذ أو تُهلك مناطق بأكملها، خلال فترات قد تطول وقد تقصر.

ـ هذا ليس شأني. لا أملك ما أدافع به عن نفسي. تلك المعركة لا تعنيني، ولم أطلب المشاركة فيها.

ما من أحد طلب ذلك. بدأ كل شيء بسبب خطأ في التقدير ارتكبه ملاك حارس، قبل سنتين من الزمن، حيث احتجزت امرأتان وطفلة صغيرة. لم يكن مقدّراً للمرأتين أن تنجَوا، ولكن

كان ينبغي أن تنجو الطفلة: وتصبح بذلك عزاء والدها، وتعيد إليه الثقة بالحياة، وتكون عونه في تجاوز المحنة التي ألمّت به. كان رجل خير، ومع أنه يعيش فترات مأساوية (لا أحد يعرف لماذا، فسبل الله غامضة)، فإنه يُلهَم الصبر والسلوان. بعد ذلك، تترعرع الطفلة على صدمة المأساة. وعندما تصبح راشدة، تستخدم لإبراء آلام الآخرين، وتنجز عملاً تتردَّد آثاره الطيبة في كل أنحاء العالم.

بداية، هذا ما كان مقدّراً. وجرى كل شيء، في البداية كما كان متوقعاً: اقتحمت الشرطة وكر الخاطفين، وأطلقت النار وقتلت الأشخاص المقرَّر موتهم، في ذلك اليوم. فجأة، تدخّل الملاك الحارس للطفلة، ذلك أن كلّ الأطفال، في الثالثة من عمرهم، كما تعرف برتا، يشاهدون ملاكهم الحارس ويتحدثون إليه. أشار الملاك على الطفلة أن تحتمي بالجدار. لكنها لم تفهم ما قاله، واقتربت منه لكي تصغي إليه.

كان حتفها كامناً في الخطوتين: أصابتها رصاصة طائشة، وماتت على الفور. وعليه اتّخذت الأمور مجرىً مختلفاً: ما كان ينبغي أن يتحوّل قصة جميلة عن خلاص البشر، كما هو مكتوب، صار صراعاً لا هوادة فيه. ظهر الشيطان ساعياً للاستئثار بروح ذاك الرجل المفعمة بالحقد، والضعف، وشهوة الانتقام. لكن الملائكة جابهته: إنه رجل صالح، وقع الاختيار عليه لكي يساعد ابنته على تغيير أمور كثيرة في هذا العالم، حتى وإن كانت مهنته من المهن غير الجديرة بالاحترام.

ولكن حجج الملائكة ذهبت سدىً، إذ استأثر الشيطان بروح الرجل، تدريجاً، حتى كادت تصير ملكه.

قالت برتا:

ـ كادت تصير ملكه. لقد قلتما «كادت تصير...».

هكذا إذن، بقي بصيص من الأمل، منذ أن رفض أحد الملائكة، أن يستسلم. غير أن صوته لم يكن مسموعاً قبل ليل أمس، عندما أمكن سماعه، ولو ضعيفاً، بفضل الآنسة.

أوضحت جدّة شانتال أنها، لهذا السبب بالذات، كانت موجودة هناك. فإذا كان لشخص أن يُغيّر الموقف، فهو حفيدتها. غير أن المعركة كانت تدور على قدر لا مثيل له من الشراسة، ومرة أخرى غلب حضور الشيطان على ملاك الغريب.

حاولت برتا تهدئة الطيفين عندما لاحظت اضطرابهما:

ـ أنتما، أنتما ميتان، أنا من ينبغي لها أن تقلق! قولا إذن، أباستطاعتكما مساعدة شانتال على تغيير الموقف؟

أجاباها بأن شيطان شانتال كان، هو أيضاً، موشكاً على الفوز في المعركة. فعندما كانت في الغابة، بعثت جدَّتها بالذئب الملعون، ليبحث عنها. إنه موجود بالفعل، لم يكذب الحداد.أرادت شانتال أن توقظ ما في نفسِ الغريب من صلاحٍ، ونجحت في ذلك. ولكن الظاهر أن حوارهما لم يتجاوز بعض الحدود، لأنهما شخصان قويان جداً. إذ ذاك، لم يبق سوى أمل وحيد: أن تكون شانتال قد رأت ما كانا يودّان أن تراه. أو الأحرى، كانا يعلمان أنها رأت، وما كانا يريدانه هو أن تسمع.

سألت برتا:

ـ ماذا تسمع؟

لم يكونا يستطيعان التفسير: فالاتصال بالأحياء له حدوده، وبعض الشياطين يرصدون أقوالهما، وقد يخرّبون كلَّ شيء، إذا افتضحت الخطة قبل التنفيذ. ولكنهما ضمنا أن تكون تلك الحالة بسيطة جداً. وإذا كانت شانتال ذكية، مثلما تؤكِّد جدتها، فسوف تعرف كيف تسيطر على الوضع.

اكتفت برتا بهذا الجواب. فمن المستبعد أن تطلب إفشاء سرٍ يكلِّفها حياتها، حتى وإن كانت تودُّ أن يُفضى إليها بالأسرار. غير أن شيئاً قد فاتها، فالتفتت نحو زوجها تسأله:

ـ قلت لي أن أبقى هنا، جالسة على هذا الكرسي، طوال هذه السنين، لأحرس القرية من شرٍّ قد يدخلها. وقد طلبت إليَّ ذلك قبل أن يرتكب الملاك خطأه، وقبل أن تُقتل الطفلة. فلمَ؟

أجاب الزوج بأن الشر سوف يمرُّ، على كل حال، ببسكوس لأنه لا يكف إطلاقاً، عن التجوال في كل مكان من الأرض، ولأنه يحبُّ أن يباغت الناس.

ـ لست مقتنعة.

وزوجها غير مقتنع أيضاً، ولكنها الحقيقة. فقد لا تتوقف المنازلة بين الخير والشر، لثانية واحدة، في قلب كل إنسان، أرضِ المعركة التي يتصارع فيها كل الملائكة والشياطين للتقدّم خطوة خطوة، وذلك طوال آلاف وآلاف من السنين، إلى أن تتمكّن إحدى القوتين من إبادة الأخرى. ولكن، حتى لو كان زوجها قد أصبَحَ في الصعيد الروحاني، فثمة ما لا يدركه، هناك، من الأشياء يفوق إلى حدّ بعيد ما كان لا يدركه على الأرض.

ـ حسناً. لقد زاد اقتناعي قليلاً. لا تقلق. وإذا كان لا بدّ من موتي، فلأن ساعتي قد حانت.

غادر الزوج والجدة، متذرعيْن بانهما يريدان أن يُفهما شانتال، على نحو أفضل، معنى ما رأته. تركت برتا زوجها يغادر، بحسرةٍ وشيءٍ من الغيرة، لصحبته تلك العجوز التي كانت، في صباها، فاتنة الرجال في بسكوس. ولكنها تعرف أنه يسهر عليها، وأن أعزَّ أمنية لديه هي أن يراها تنعم بحياة مديدة.

فكَّرت، وهي تواصل ترقّبها لما يجري من حولها، أنها لن تنزعج من الاستمرار، بعض الوقت، في تأمل الجبال، ومراقبة النزاعات الأبدية بين النساء والرجال، وبين الأشجار والرياح، وبين الملائكة والشياطين.

قرّرت أن تنام، موقنة أن الآنسة بريم سوف تفهم الرسالة، حتى وإن كانت لا تملك موهبة الحوار مع الأرواح.

قالت في سرّها قبل أن تغفو:

«غداً ساشتري صوفاً بلون آخر لكنزتي».

❊ ❊ ❊

١٩

قال الكاهن:

ــ في الكنيسة، فوق أرض حرامٍ، تحدّثت عن ضرورة التضحية. وهنا، فوق أرض فانية، أطلب إليكم أن تكونوا مستعدين للشهادة.

ازدحمت الساحة الصغيرة، الخافتة الإضاءة لأنها مُنارة بمصباح وحيد، فالمصابيح التي كانت وعداً في حملة رئيس البلدية الانتخابية لم تصبح حقيقة. ازدحمت بمزارعين ورعاة، يراودهم النعاس (لأنهم تعوّدوا النوم باكراً). لبث الحضور صامتين بما ينمّ عن احترام ورهبة. وكان الكاهن قد أحضر كرسيّاً واعتلاه لكي يراه الجميع.

ــ اتُّهمت الكنيسة، طوال قرون، بخوض صراعات غير عادلة، ولكنها كانت، في الحقيقة، تحاول أن تتغلّب على ما يهدّد وجودها.

فقال أحد الحاضرين محتجّاً:

ــ لسنا هنا، يا حضرة الكاهن، لنستمع إلى كلام عن الكنيسة، ولكن عن بسكوس.

ــ لست في حاجة لأن أشرح لكم أن بسكوس مهدَّدة بالزوال عن الخارطة، وأنكم ستزولون معها، أنتم وأراضيكم ومواشيكم. لست هنا لكي أتكلّم عن الكنيسة، ولكن يتوجَّب عليَّ أن أقول لكم شيئاً مهماً: وحدهما التضحية والتوبة تستطيعان أن تضمنا

الخلاص. وقبل أن تقاطعوني، أرى لزاماً عليّ أن أحثكم عن التضحية بشخص ما، وتوبتكم جميعاً، والخلاص للقرية.

صاح صوت آخر:

ـ ربّما لم تكن هذه سوى أكاذيب.

قال رئيس البلدية مغتبطاً لزفّه هذا الخبر الذي يجهله الجميع:

ـ غداً يرينا الغريب الذهب. إن الآنسة بريم لا تريد أن تتحمَّل المسؤولية بمفردها، وطلبت مالكة الفندق من الرجل أن يأتي بالسبائك إلى هنا، وقَبِل. نحن لن نتصرّف إلا بوجود ضمانة.

وراح رئيس البلدية يعدِّد النعم التي ستغمر القرية: تحسين ظروف الحياة، وحديقة للأطفال، وخفض الضرائب، وتوزيع الثروة الطارفة على القرية.

قال أحد الحاضرين:

ـ بحصص متساوية.

إنه الوقت المناسب لاقتراح تسوية، ولكن الأنظار كانت مشدودة إليه، تبدّد أثر النعاس في الحضور.

أكدَّ الكاهن قبل أن يجيب رئيس البلدية:

ـ بحصص متساوية. ليس هناك خيار: إما أن تتقاسموا، جميعكم، المسؤولية والمكافاة معاً، وإمَّا أن يلجأ أحدكم، في القريب العاجل، إلى فَضحِ جريمة ارتكبت، مدفوعاً بمشاعر الحسد أو الانتقام.

الحسد والانتقام: كلمتان يعرفهما الكاهن جيداً.

ـ من الذي سيموت؟

تولّى رئيس البلدية الإجابة قائلاً إن الخيار وقع، بكل تجرّد، على برتا: إنها تتألّم كثيراً لفقدانها زوجها، وهي طاعنة في السن، ليس لها أصدقاء، وبوادر الجنون جليّة عندها، فهي تجلس من الفجر إلى الغروب أمام منزلها، ولا تساهم في شيء لإنماء القرية، وكل ما

لديها من مال، يفترض أن تستثمره في الزراعة وتربية المواشي، جمّلته في مصرف، في إحدى المدن البعيدة، ولا يستفيد منه سوى التجّار الجوّالون.

لم يبدر من الجمع أي اعتراض على هذا الاختيار، ما أثلج قلب رئيس البلدية، لأنه رأى في ذلك تعزيزاً لسلطته. غير أن الكاهن يعلم أن الإجماع قد يعني إشارة حسنة أو سيئة، لأن الصمت لا يعني، دائماً القبول: إنه يفضح، في وجه عام، عجز الناس عن رد الفعل الفوري. لم يُستبعد احتمال أن يكون شخص ما غير موافق، فيندم فوراً على تقبله الضمني لاقتراح يعارضه، وقد يترتّب على ذلك نتائج غير محمودة.

قال الكاهن:

ـ إني أحتاج إلى موافقتكم جميعاً. أحتاج لأن تقولوا، جهاراً، أنكم تؤيدون، أو تعارضون هذا الاختيار لكي يسمع الربُّ، ويعلم أن هناك رجالاً شجعاناً في جيشه. وإذا كنتم لا تؤمنون بالرب، فأسألكم أيضاً أن تعبّروا، جهاراً، عن موافقتكم أو رفضكم، لكي يعلم الجميع ما يدور في رأس كل منكم.

إن قوله «إنني أحتاج» وليس «نحن نحتاج» أو «رئيس البلدية يحتاج»، قد أزعج رئيس البلدية. لكنه إلى الآن لم يظهر انزعاجه، فسوف تسنح فرص أخرى ليثبت سلطته، ولا بأس في أن يترك الكاهن يخاطر بنفسه.

ـ أريد موافقتكم شفاهياً.

أول «نعم» انطلقت من الحدّاد. وسارع رئيس البلدية بإطلاق «نَعَمِه» ليبرهن على شجاعته، ثم تتالى الجميع على إعطاء موافقتهم: البعض لكي ينتهي بسرعة من هذا الاجتماع ويعود إلى المنزل؛ والبعض، لتفكيره بالذهب الذي يتيح له أن يغادر القرية على الفور؛ وآخرون لأنهم ينوون إرسال مبلغ من المال إلى أولادهم،

المقيمين في مدينة كبيرة، لاستثماره. لا أحد، في الواقع، يعتقد أن باستطاعة الذهب أن يعيد إلى بسكوس مجدها الغابر. وكل شخص يتمنى ثروة يستحقها، بحسب تفكيره.

لا أحد يملك الشجاعة لأن يقول «لا».

تابع الكاهن كلامه:

ـ في القرية مئة وثماني نساء ومئة وثلاثة وسبعون رجلاً. في كل منزل قطعة سلاح، على الأقل، لأن التقليد يقضي بأن يتعلّم كل رجل الصيد. لذا، صباح الغد، ستجمعون البندقيات في الكنيسة مع خرطوشة واحدة لكل بندقية. وأطلب من رئيس البلدية، الذي يملك عدداً من البندقيات، أن يأتي بواحدة لي.

فقال مأمور الأحراش:

ـ إننا لا نترك أسلحتنا، إطلاقاً، بأيدي الآخرين. إنها أسلحة مقدّسة، ومزاجية، وشخصية.

ـ دعني أنهي كلامي. سأشرح لكم كيف تؤدّي ثلّة الإعدام عملها. يجب أن يطلق سبعة جنود النار على المحكوم بالإعدام من البندقيّات السبع، ومن البندقيّات، هناك واحدة محشوّة بطلقة خُلَّب. وهكذا لا يعرف أحد من الجنود السبعة من هو مطلق الرصاصة الخُلَّب، فيظن كل منهم أن زملاءه هم المسؤولون عن موت المحكوم، وليس هو.

ـ بالضبط. غداً أحضّر البندقيّات: كل بندقية من اثنتين محشوّة بطلقة خلّب. عندما تطلقونها يستطيع كل منكم أن يظن بأنه براءٌ من دم الضحية.

استقبل جميع الحاضرين، الذين أنهكهم التعب، اقتراح الكاهن بارتياح، وكأنهم أُنعشوا بطاقةٍ جديدة عمّت المكان. وكأنما

أفرغت هذه الحكاية، بطرفة عين، من مضمونها المأساوي، واختُصرت بالبحث عن كنز مخبوء. وكان كل منهم، قد أصبح يشعر بأنه بريء من كل مسؤولية، ومتضامن، في الوقت عينه، مع مواطنيه، الراغبين، أيضاً، بتغيير الحياة والمكان، من جديد، مستثاراً بصدى العصبيّة: إن بسكوس هي مكان ليشهد أحداثاً مفاجئة وذات شأن.

قال الكاهن:

ـ من جهتي، ليس من حقّي التصرف من دون تبصُّر، لذلك أضمن لكم بأني لن أطلق خرطوشة فارغة، ولن أكون، فضلاً عن ذلك، طرفاً لدى اقتسام الذهب: هناك أسباب أخرى تملي عليَّ مسلكي.

مرة أخرى، لم تروقْ هذه الأقوال لرئيس البلدية: فهو هنا لكي يدرك سكان بسكوس أنه رجل شجاع، وكريم، ورئيس مستعدّ لشتَّى التضحيات. لو كانت زوجته موجودة، لربما قالت إنه يستعدّ لترشيح نفسه للانتخابات المقبلة.

وقال في سرّه: «هذا الكاهن لا يخسر شيئاً إذا تريَّث. إنني أعرف كيف أتّخذ كلَّ التدابير الضرورية لإجباره على ترك أبرشيته».

سأل الحدّاد:

ـ والضحية؟

فأجاب الكاهن:

سوف تمثُل. أنا أتكفَّل بذلك. ولكنني أحتاج إلى مساعدة ثلاثة رجال. من يتطوّع منكم؟

لم يتطوَّع أحد، وإذ ذاك اختار الكاهن ثلاثة رجال أشدّاء، حاول أحدهم أن يرفض، ولكن نظرات جيرانه أخرسته.

سأل مالك الأراضي مخاطباً الكاهن:

ـ أين نقدِّم الأضحية؟

أمام هذه الاستهانة بسلطته، تدخّل رئيس البلدية، مغتاظاً، وهو يرمق المالك بنظرة غاضبة:

ـ أنا صاحب القرار: لا أريد أن تتلطّخ أرض بسكوس بالدم. الموعد غداً، في مثل هذا الوقت، أمام النُصب السلتي. احملوا معكم مصابيح ومشاعل: ينبغي لكل منكم أن يشاهد الضحية بوضوح لكي يكون الرميُ دقيقاً.

ترجل الكاهن عن كرسيّه، وقد خُتم الاجتماع. وعاد الجميع إلى منازلهم كي يناموا إثر أمسية شاقّة. التقى رئيس البلدية زوجته. وروت له ما جرى مع برتا. وأضافت أنها، بعد مناقشة الأمر مع مالكة الفندق، باتت على يقين بأن العجوز لا تعرف شيئاً. لم يكن لمخاوفهما أي أساس، كما ليس عليهما أن يخافا من الذئب الملعون لأنه غير موجود.

وعاد الكاهن إلى الكنيسة، حيث قضى قسطاً من الليل متعبّداً.

* * *

٢٠

أكلت شانتال وهي تتناول الفطور، من خبز الأمس، لأن الفزان الجوّال لا يعمل يوم الأحد. شاهدت من نافذتها سكان بسكوس يعبرون الساحة، والبنادق في أيديهم. استعدّت للموت، فما أدراها ألّا تكون هي من وقع عليه الاختيار؟ ولكن أحداً لم يطرق بابها. كان الرجال يقصدون الغرفة الملحقة بهيكل في الكنيسة. يدخلون ثمَّ يخرجون، بأيدٍ فارغة.

أمَّا وقد عِيلَ صبرها لتسقُّط الأخبار، فقد هرعت إلى مالكة الفندق التي حكت لها تفاصيل ما جرى ليلة أمس: اختيار الضحية، واقتراح الكاهن، والاستعدادات للأضحية، ما يعني أن العداء حيال شانتال قد تبدَّد، وبات باستطاعتها أن تلبث مطمئنة.

ـ أريد أن أسرَّ إليك بأمر: ذات يوم سوف تقدِّر بسكوس ما صنعتِه لأجلها.

ـ هل أنتم واثقون بأن الغريب سيُسلِّم الذهب؟

ـ أنا شخصياً، لا أشك في ذلك. فقد غادر مع حقيبة الظَهر الفارغة.

قررت شانتال ألاّ تذهب للنزهة في الغابة، لأنها لا تريد المرور بمنزل برتا وجبه نظرتها. عادت إلى غرفتها لتستعيد وقائع الحلم الغريب الذي رأته ليلة أمس: ظهر لها ملاك وأعطاها السبائك الذهبية الإحدى عشرة طالباً إليها أن تحتفظ بها. أجابت شانتال أن

هذا يقتضي قتل شخص ما. فأكّد لها أن شيئاً لن يحدث، بل على العكس: فالسبائك تثبت أن الذهب، في حدّ ذاته، غير موجود.

لذا طلبت من مالكة الفندق أن تكلّم الغريب، ذلك أن لديها خطة ما. ولكن، بما أنها خسرت من قبل كل معارك حياتها، فهي ترتاب بقدرتها على تنفيذها.

❊ ❊ ❊



٢١

كانت برتا تراقب غروب الشمس وراء الجبال، عندما رأت الكاهن، يتبعه ثلاثة رجال، وافداً باتجاهها. فألمّت بها كآبة حادّة، لثلاثة أسباب: عِلمُها بأن ساعتها قد حانت، وإدراكها بأن زوجها لم يكلّف نفسه عناء الظهور لمواساتها (ربما بسبب خوفه من سماع ما سوف تقوله، وربما خجلاً من عجزه، حيث هو، عن إنقاذها)، ولإدراكها أن المال الذي اقتصدته سيقع في أيدي أصحاب المصارف، آسفة لأنها لم تبذّره في حياتها.

ولكن تبقّى لها قدْرٌ يسير من الفرح: ذلك أن اليوم الأخير من حياتها كان قارس البرد لكنه مُشمس، وليس كل الناس يتاح لهم أن يرحلوا عن الدنيا، وهم يحملون ذكرى جميلة كهذه.

أشار الكاهن إلى الرجال الثلاثة بالبقاء بعيداً، واقترب بمفرده من برتا.

قالت:

ـ طقس جميل. أنظر كم أن الله عظيم، وأي طبيعة جميلة وهبنا.

«سوف يقتادونني. ولكنني سأترك هنا كل خطيئة العالم».

أجابها الكاهن محاولاً الاحتفاظ بنبرته المحايدة:

ـ إنك لا تتصوّرين الجنة.

ـ لا أدري إذا كانت بمثل هذا الجمال، ولست حتى موقنة بوجودها. هل سبق أن زُرْتَها؟

ـ لم أفعل إلى الآن. ولكنني عرفت الجحيم، وأعلم أنه مخيف جداً، وإن كان يبدو جذّاباً من بعيد.

فطنت برتا إلى أنه يلمح إلى بسكوس:

ـ إنك مخطئ، يا سيدي الكاهن. إنك موجودٌ في الجنة من دون أن تدري أنها الجنة. مثل هذا الأمر يحصل، أيضاً، لمعظم الناس في هذا العالم: إنهم يبحثون عن الألم في المكان الذي قد يجدون فيه الأفراح العظيمة، وذلك لاعتقادهم بأنهم غير جديرين بالسعادة.

ـ يبدو أن أعوامك الأخيرة قد أكسبتك قدراً كبيراً من الحكمة.

ـ لبثت ردحاً طويلاً من الزمن لا أجد من يتحدّث إليّ. ثمَّ، على نحو مفاجئ، يفطن الجميع لوجودي. تصوَّر أن زوجة رئيس البلدية ومالكة الفندق شرَّفتاني، ليلة أمس، بزيارة. وها السيّد الكاهن اليوم، يحذو حذوهما. تراني أصبحتُ ذات شأن؟

ـ بالضبط، بل أرفع الناس شأناً في القرية.

ـ هل سأترك ميراثاً؟

ـ عشر سبائك من الذهب. وسوف يتذكرك الرجال والنساء والأطفال من جيل إلى جيل. بل من الممكن أن تخلّد ذكراك بنصب.

ـ أفضّل أن تخلّد ذكراي بنافورة ماء. ففضلاً عن كونها تزيّن الساحة التي تُقام فيها، فإنها تروي الظمأ، وتطرد الفراشات السود.

ـ سوف نقيم لك نافورة ماء. أتعهّد ذلك.

رأت برتا أن الدعابة طالت أكثر مما ينبغي، وأن وقت العمل قد حان:

ـ إني أعرف، يا سيّدي الكاهن، كل شيء. إنكم تحكمون بالموت على امرأة بريئة لا تستطيع الدفاع عن حياتها. أني ألعنكم جميعاً: أنت وهذه الأرض وأهل القرية كلّهم!

قال الكاهن مذعناً:

ـ إني أستحقُّ اللعنة. لقد جهدت، طوال أكثر من عشرين سنة، لكي أبارك هذه الأرض، لكنَّ أحداً لم يسمع ندائي. وحاولت، طوال هذا الوقت، زرع الخير في قلوب الناس إلى أن أدركت ذات يوم أن الربَّ اصطفاني ذراعه اليسرى لكي أشير إلى الشر الذي يقدرون عليه، على نحو ربَّما أحسوا معه بالخوف، وغيّروا ما بأنفسهم.

كانت برتا تبكي، ولكنّها تمالكت نفسها:

ـ إنها عبارات منمّقة خالية من أي معنى. بل هي، في الأكثر، طريقة لشرح القساوة والظلم.

ـ إني لا أفعل ذلك من أجل المال، على العكس من الجميع. أعرف أنه ذهبٌ ملعون مثل هذه الأرض، وأنه لا يجلب السعادة لأيٍّ كان. لكنني أفعل لأن الربَّ سألني أن أفعل؛ أو، توخّياً للدقة: أمرني به لكي يستجيب لصلواتي.

«لا فائدة من الكلام»: هذا ما راود برتا، وهي تشاهد الكاهن يُخرج من جيبه علبة الحبوب المنوّمة.

قال لها:

ـ لن تشعري بشيء، لندخل منزلك.

ـ لا أنت، ولا أيّ شخص آخر يطأ بقدميه أرض المنزل ما دمتُ حيّة. قد يُفتح في آخر هذه الليلة. أما الآن، فليس ممكناً أبداً.

أشار الكاهن إلى رجل من مرافقيه بالاقتراب، والعلبة البلاستيكية بيده:

ـ ابتلعي هذه الحبوب، ولن تلبثي أن تنامي. وعندما تستيقظين سوف تكونين في السماء بقرب زوجك.

ـ إنني معه باستمرار، ولم ألجأ إلى الحبوب المنوِّمة إطلاقاً، حتى في حالات الأرق.

ـ في مثل هذه الحالة، سيكون مفعولها أسرع.

كانت الشمس قد شارفت المغيب، والليل اكتنف الوادي والقرية.

ـ وإذا رفضت؟

ـ سوف تبتلعينها بأية حال.

ألقت نظرة على الرجال، الذين جاؤوا برفقة الكاهن، وأيقنت أن المقاومة لن تجدي. بلعت الحبوب مع جرعات كبيرة من قنينة الماء البلاستيكية. ماء عديم الطعم، عديم اللون، ومع ذلك فهو أكثر الأشياء أهمية، في العالم، مثلها هي في هذه اللحظة.

ألقت نظرة أخيرة على الجبال التي بدت غارقة في الظلمة، ولمحت أولى نجمات السماء تلمع. وقالت في سرها إنها عاشت حياة جميلة: ولدت وستموت في مكان أحبته، وإن لم يبادلها الحبَّ، فما أهمية ذلك. إن من يحب أملاً بمقابل، يهدر وقته.

كانت مباركة. لم تعرف بلداً آخر على الإطلاق، ولكنها تعرف أن بسكوس تحدث فيها الأشياء ذاتها، التي تحدث في أيِّ مكان آخر. فقدت الزوج الذي أحبته، ولكن الربَّ منحها الفرح بإبقائه إلى جانبها بعد وفاته. شاهدت القرية وهي في أوج عظمتها، ورافقت مراحل انحطاطها، وستذهب قبل أن تشاهد دمارها الكامل. عرفت الناس بسيئاتهم وحسناتهم. وكانت، برغم كل ما يحدث لها الآن، وبرغم الصراعات الجارية، كما يقول زوجها في العالم غير المرئي، موقنة بأن جوهر الإنسان الخيِّر هو المنتصر في النهاية.

رثت لحال الكاهن، ورئيس البلدية، والآنسة بريم، والغريب، وكل فرد من سكان بسكوس. لن يأتي الشرُّ بالخير إطلاقاً، حتى وإن أجهد الجميع أنفسهم في الاعتقاد بعكس ذلك. وعندما يكتشفون الحقيقة يكون قد فات الأوان.

لا تشعر بالأسف إلاّ لأمر واحد: أنها لم تشاهد البحر قطّ. كانت تعرف أن البحر موجود، وأنه واسع جداً، هادئ وهائج في آن. لكنها لم تتمكّن يوماً من الذهاب للنزهة على شاطئه، من وطء رمله بقدمين حافيتين، وتذوّق طعم الماء المالح، والغوص في الماء البارد كمن يعود إلى أحشاء الأم العظمى (تذكّرت أن السلتيين كانوا يعشقون استخدام هذه العبارة).

ما خلا ذلك، ليس ثمّة ما تشكو منه. لا شك في أنها حزينة، حزينة جداً، لأن عليها أن تغادر على هذا النحو، ولكنها لا تريد أن تلعب دور الضحية: لقد اختارها الرب، حتماً، لهذا الدور، وهو أفضل بكثير من الدور الذي خصّ به الكاهن.

سرى الخدر في يديها وقدميها، في حين كان الكاهن يلحّ عليها قائلاً:

ـ أريد أن أحدّثك عن الخير والشر.

ـ لا فائدة من ذلك. أنت لا تعرف الخير. لقد تسمّمت بالشر الذي نلته منهم. وها أنت الآن تنشر الوباء في أرضنا. إنك لا تختلف عن ذاك الغريب الذي جاء لتدميرنا.

غابت كلماتها الأخيرة في غمغمة خافتة. بدت النجمة، في قبة السماء، كأنها تبعث إليها بإشارة ما. ثم أغمضت برتا عينيها.

***

٢٢

دخل الغريب حجرة الحمام الملحقة بغرفته، وغسل السبائك بعناية، ثم وضعها في حقيبة الظهر الرثة. لقد لبث، طوال اليومين الماضيين وراء الكواليس، وها هو يستعدُّ للعودة إلى المسرح قبل النهاية.

لقد أتقن، حقاً، وضع خطته وتنفيذها: فمنذ اختيار القرية المنعزلة، ذات العدد القليل من السكان، حتى اختياره الشريكة لئلا يتّهمه أحد بأنه المحرّض على ارتكاب جريمة، إذا سارت الأمور على غير ما يشتهي، عمد أولاً إلى اكتساب ثقة السكان، وثانياً إلى زرع الرعب والفوضى. ومثلما تصرف الربُّ تجاهه، سيتصرّف تجاه الآخرين. وكما وهبه الربُّ الخير قبل أن يُلقي به في الهاوية، فإنه سيلجأ إلى اللعبة ذاتها.

لقد أتقن كل شيء، باستثناء أمر واحد: لم يكن مؤمناً بأن خطّته ستنجح، وكان على يقين بأنه في ساعة اتخاذ القرار قد تغيّر «لا» بسيطة مجرى التاريخ، وأنّ شخصاً واحداً يرفض ارتكاب الجريمة، يكفي برهاناً على أن الضلال لم يشمل كل شيء، وأن شخصاً يُنقذ القرية، من شأنه إنقاذ العالم، وأن الأمل ما زال ممكناً، وأن الصلاح ينتصر، وأن الإرهابيين ما كانوا ليدركوا الشر الذي ارتكبوه، وأن الغفران قد يغلب، وأن أيام الألم قد تُخلي المكان لذكرى حزينة تلازم أيامه، وقد يستطيع أن ينطلق، من جديد، للبحث عن السعادة. ومقابل تلك الـ «لا» التي يودُّ سماعها، ستنال

القرية سبائك الذهب العشر، بصرف النظر عن الاتفاق الذي عقده، هو نفسه، مع الآنسة بريم.

ولكن خطّته قد أخفقت. وفات الأوان الآن. وليس بمقدوره أن يعدل عن فكرته.

سمع طرقاً على بابه. إنها مالكة الفندق:

ـ هل أنت مستعدّ؟ لقد حان الوقت.

ـ سأنزل، وألتقيك في المقصف.

ارتدى سترته، ثم حمل حقيبته، وغادر الغرفة.

ـ لديَّ الذهب. ولكن آمل، لإزالة أيِّ سوء تفاهم، أن تعلمي أن بعض الأشخاص على علم بإقامتي في فندقك. إذا أقدم سكان القرية على استبدال الضحية، فكوني على يقين بأن الشرطة سوف تأتي للبحث عني هنا؛ لقد راقبتِ اتصالاتي الهاتفية، أليس كذلك؟

اكتفت مالكة الفندق بهزّ رأسها إيجاباً.

* * *

٢٣

كان موقع المسلّة السلتية يبعد عن بسكوس، مسافة نصف ساعة، سيراً. وكان الناس يعتقدون، لقرون طويلة، أن المسلّة ليست في الحقيقة، سوى صخرة مختلفة، هائلة الحجم مصقولة بالأمطار، كانت، في الماضي، منتصبة ثم ضربتها صاعقة ذات يوم. وكان من عادة آهاب أن يستخدمها، كطاولة طبيعية، في الهواء الطلق، لاجتماعات مجلس القرية.

إلى أن جاء اليوم الذي أرسلت فيه الحكومة مجموعة من الباحثين، ليعدّوا تقريراً عن آثار السلتيين في المنطقة، فاكتشف أحدهم النُصب، وتبعه علماء آثار راحوا يقيسون، ويحسبون، ويتناقشون، وينبشون من دون أن يتوصلوا إلى النتيجة القائلة بأن جماعة سلتية كانت قد جعلت هذا المكان مكاناً مقدّساً، ولكن من دون تحديد الطقس الديني الذي كانت تمارسه. كان البعض يقولون إنه كان مرصداً فلكياً، وأكّد آخرون أنه كان مسرحاً لاحتفالات مكرّسة للخصوبة حيث ثمة عذارى يفتضهنّ كهّان. وعلى أثر أسبوع من المجادلات الحامية، غادر العلماء لإجراء أبحاثهم في أماكن أخرى، دون أن يتوصلوا إلى تفسير مُقنع.

كان رئيس البلدية قد شمل النشاط السياحي في برنامجه الانتخابي. وبعد انتخابه نجح بنشر تحقيق، في إحدى صحف المنطقة، عن الإرث السلتي لدى سكان بسكوس. غير أنه كان يفتقر إلى وسائل تأهيل المكان. ولم يجد بعض السياح الجريئين سوى مسلّة مقلوبة وسط النباتات البرية. وبالمقابل، كانت نواحي

بعض القرى المجاورة تحتوي على منحوتات، وكتابات ذات قيمة، وآثار أرفع شأناً. لذلك فشل المشروع السياحي، وعاد النصب السلتي إلى وظيفته المعهودة: وهي استخدامه، في نهاية الأسبوع، مائدة للمتنزهين.

في فترة ما بعد الظهر تلك، كانت نقاشات، بل نزاعات عنيفة تنفجر في غير منزل من منازل بسكوس. وباعثها كلّها سبب واحد: الرجال يريدون الذهاب بمفردهم، والنساء يطلبن المشاركة في «طقس الأضحية»، كما بات السكان يسمّون الجريمة التي سوف يرتكبونها. كان الرجال يقولون إن الأمر لا يخلو من الخطر، فقد تنطلق رصاصة سهواً؛ أما النساء، فكنّ يطلبن إلى الرجال احترام حقوقهن لأن العالم قد تغير؛ فما كان من الرجال إلا أن أذعنوا أخيراً.

إنه إذن موكب احتفالي من مئتين وواحد وثمانين شخصاً، إذا عددنا الغريب واستثنينا برتا، الراقدة على نقّالة أعدّت على عجل. تحرَّك الموكب باتجاه الغابة سلسلةً من مئتين وإحدى وثمانين نقطة مضيئة، من فوانيس، ومصابيح جيب. وكان كل رجل يحمل بندقية بيده، غير جاهزة للإطلاق، منعاً لأي حادث.

كان حطّابان اثنان يحملان، بمشقة، النقّالة. قال أحدهما: «لحسن الحظ أننا لن نعود بالجثة، فمع مئات الرصاصات التي ستستقرّ جسدها سوف تغدو ثقيلة الوزن جداً». وشعر بالغثيان: «لا، ينبغي ألاّ نفكّر بشيء، اللهم إلاّ بيوم الاثنين فقط».

كان الصمت مطبقاً طوال الطريق. لا أحد يبادل الآخر نظرة، لكأنّ الجميع في غمرة كابوس عليهم أن ينسوْه في أسرع وقت. أخيراً بلغوا المكان، لاهثين، منهوكين من شدّة تشنّجهم لا من

شدة التعب. وشكلوا نصف دائرة، في فرجة الغابة، حيث تنتصبُ المسلّة السلتية.

أشار رئيس البلدية إلى الحطّابين بإنزال برتا عن النقالة وتمديدها على النُصب.

وفي حين مرّ بمخيلة الحدّاد ما يذكرهُ من الأفلام الحربية التي شاهدها، حيث يزحف الجنود لاجتناب رمايات العدو، صاح قائلاً:

ــ لا. من الصعوبة بمكان رمي هدفٍ ممدّد.

حمل الحطَّابان برتا وأجلساها على الأرض، بحيث يُسند الظهر إلى الصخرة. كان هذا الوضع، وضعاً مثالياً، في الظاهر، ولكن، فجأة، علا صوت امرأة، منتحباً:

ــ إنها تنظر إلينا. وتشاهد ما نفعل.

لا ريب في أن برتا لا ترى شيئاً، ولكن كيف لا يكون المرء في غاية الانفعال أمام هذه السيدة العجوز التي ينضح وجهُها بالطيبة، ويرتسم على شفتيها ظل ابتسامة، وسوف تمزّق جسدها أعيرة نار غزيرة.

أمر رئيس البلدية، المنزعج هو أيضاً أمام هذه الضحية العزلاء، قائلاً:

ــ أديروها. أطاع الحطَّابان، وهما يتذمّران، وعادا إلى الصخرة، وأدارا الجسد بحيث غدا في حالة ركوع، بينما أسند الوجه والصدر إلى النُصب. ولما كان من الصعب إبقاؤه في هذا الوضع، اضطُروا إلى ربط القبضتين بحبل مرَّروه فوق الصخرة وربطوه من الجهة الأخرى.

مسكينة برتا، وهي، هذه المرة، في وضع مضحك: راكعة، مولية ظهرها، ذراعاها ممدودتان على الصخرة، كأنها تصلّي وتلتمس شيئاً ما. أراد أحد الحاضرين أن يحتجّ، ولكن رئيس البلدية أسكته قائلاً إن الوقت قد حان لإنهاء الأمر.

إن خير الأعمال أسرعها. ولا حاجة إلى خطابات أو مبررات: فهذه يمكن تأجيلها إلى الغد، ليجري التداول بها في المقصف، وفي الحقول، وفي الشوارع. وغدا كل شخص يعرف أنه لن يملك الشجاعة للمرور بعتبة الباب، حيث كانت العجوز تجلس متطلّعة إلى الجبال محدّثة نفسها. ولكن في القرية شارعان آخران، بالإضافة إلى درب ضيّق، متدرّج صعداً يُفضي، مباشرة، إلى الطريق العامة.

صرخ رئيس البلدية، مسروراً لعدم سماعه صوت الكاهن، ما يعني أنه استعاد نفوذه:

ــ لننهِ الأمر بسرعة! إن باستطاعة أيِّ عابر في الوادي أن يرى هذه الفُرجة البادية، في الغابة، وأن يسعى إلى استطلاع ما يجري. حضّروا بندقياتكم، أطلقوا، ولنغادر فوراً!

لا مظاهر احتفالية. مجرّد تأدية واجب مثل الجنود الشجعان الذين يدافعون عن قريتهم. ولا حالات نفسية، إنه أمر سينفّذه الجميع.

ولكن رئيس البلدية أدرك، فجأة، سبب صمت الكاهن، وأيقن أنه وقع في الشرك. فمن الآن فصاعداً، سيكون باستطاعة الجميع، في حال شيوع الحكاية، أن يزعموا ما يزعمه القتلة أثناء الحروب من أنهم ينفّذون الأوامر. ما الذي يعتمل، في هذه اللحظة، في روع هؤلاء الناس؟ وهل هو، في نظرهم، وغدٌ أم منقذ؟

من الصعب عليه أن يضعُف، في هذه اللحظة، حيث تعلو قرقعة البندقيات التي تجهّز للاستخدام. تصوَّر، بلمح البصر، دويَّ مئة وأربع وسبعين بندقية تنطلق أعيرتها في وقت واحد، ثم، فور ذلك، يجري الانسحاب العاجل، دون مصابيح مضاءة، وكأنه أعطاهم الأمر بالتقهقر. إنهم يعرفون الطريق جيداً، ومن الأفضل عدم المجازفة، إذا طال الوقت، بلفت الانتباه.

ابتعدت النسوة على نحو غريزي، بينما صوَّب الرجال بندقياتهم، نحو الجسد الساكن، من مسافة قريبة. من المستبعد أن يُخطئوا

الهدف، لقد تمرّنوا، منذ حداثتهم، على إصابة الحيوانات المتحركة، وإصابة الطيور أثناء تحليقها.

استعدَّ رئيس البلدية لإعطاء الأمر بالإطلاق.

صرخ صوت أنثوي:

ـ مهلاً!

إنها الآنسة بريم.

ـ والذهب؟ هل رأيتم الذهب؟

خفض الرجال بندقيّاتهم، وبقيت الأصابع على الزناد: لا، لا أحد تثبّت من وجود الذهب. التفت الجميع نحو الغريب.

تقدّم الغريب، بخطىً متباطئة، إلى وسط الحلقة، حيث وضع حقيبته وأخرج منها السبائك الذهبية تباعاً.

ـ ها هي، قالها ببساطة، وعاد إلى مكانه.

اقتربت الآنسة بريم من السبائك، أخذت واحدة وعرضتها على الحضور:

ـ إنه، حقاً، الذهب الذي وعدكم به الغريب، ولكن أريد أن نفحصه. أطلب من عشر نساء أن يتقدّمن للتثبُّت من هذه السبائك.

همَّ رئيس البلدية بالتدخل، خشية أن يطرأ حادث، لدى مرور النسوة أمام خط الإطلاق. ولكن عشر نساء، بمن فيهن زوجته، انصعن لأمر الآنسة بريم، وتفحصت كل منهن سبيكة من السبائك العشر.

قالت زوجة رئيس البلدية:

ـ أجل، إنه ذهب صرف، أرى على كل سبيكة خاتم الدولة، والرقم التسلسلي، وتاريخ الصهر، والوزن: لا عيب في المكافأة.

ـ قبل الذهاب بعيداً، اسمعوا ما أقوله لكم.

ـ ليس الوقت وقت خطابات، يا آنسة بريم. وأنتن، يا سيداتي،

اتركن هذه السبائك وارجعن إلى أماكنكن. يجب أن يقوم الرجال بواجبهم.

ـ إخرسْ، أيها الأحمق!

أشاعت صرخة شانتال ذهولاً عاماً. لا أحد كان ليتخيّل أن يوجّه أحد سكان بسكوس مثل هذا الكلام إلى رئيس البلدية.

ـ هل أنت مجنونة؟

كرَّرت شانتال بأعلى صوتها، مرتعدة، محتقنة العينين بالكراهية:

ـ إخرسْ! أنت المجنون، لقد وقعت في الشرك الذي يسوقنا إلى الإدانة والموت. إنك عديم المسؤولية!

همّ رئيس البلدية بالانقضاض عليها، ولكن رجلين أمسكا به.

صاح صوت، من الجمع، قائلاً:

ـ لنستمع إلى ما تريد الآنسة قوله، لن يستغرق الأمر أكثر من بضع دقائق!

خمس دقائق، أو عشر، لقد بات، الوقت مهماً بالفعل، في هذه اللحظة حيث شهد الوضع، بعض التحوّل. كان كل شخص يشعر بأن الخوف والخجل يتسلّلان إليه، وأن شعوراً بالإثم يجتاح النفوس، وأن كل واحد قد يكون راغباً في إيجاد عذر مقبول لكي يعدِل عن فكرته. بات كل رجلٍ مقتنعاً أنه هو من سيطلق العيار القاتل. ويخشى، من اليوم، أن يسكن شبح هذه العجوز الساحرة لياليه.

ماذا لو تكلّم أحد؟ وماذا لو لم يحقّق الكاهن ما وعد به؟ وماذا لو صار سكان بسكوس، جميعهم، متّهمين؟

قالت شانتال:

ـ سأتكلم قدر ما أشاء.

يبدو أنها استعادت هدوءها، عازمة على عدم التراجع قيد أنملة، وهي تتكلّم بثقة لم تُعهد لديها، من قبل:

ـ «ولكن اطمئنوا. لن أطيل الكلام. عندما نشاهد ما يجري، ثمة ما يحملنا على الدهشة، وفي الدرجة الأولى لأننا نعلم، جميعاً، أن بسكوس، في عهد آهاب، كانت تستقبل، بانتظام، رجالاً يزعمون بأن لديهم مسحوقاً خاصاً يحوّل الرصاص ذهباً. وكانوا يسمّون أنفسهم الخيميائيين، وقد أثبت أحدهم أنه يقول الحقيقة عندما هدّده آهاب بالموت.

«وها أنتم قررتم، اليوم، أن تقوموا بالأمر ذاته: مزج الرصاص بالدم، مقتنعين أن من هذا المزيج تكوّن الذهب الموجود أمامكم. من جهة، أنتم على حق. ومن جهة ثانية كونوا على يقين بهذا الأمر: ما أن يقع هذا الذهب في يد أحدكم حتى يُفلت منه.

لم يكن الغريب يدرك ما الذي ترمي إليه شانتال؛ غير أنه كان متشوّقاً لمعرفة التتمة: وفجأة في ركن مظلم من روحه، التمع النور المنسيُّ مجدّداً.

ـ «لقد تعلّمنا، في المدرسة، تلك الأسطورة الشهيرة عن الملك ميداس، ذاك الذي التقى أحد الآلهة، فمنحه كل ما كان راغباً في الحصول عليه. وكان ميداس ثرياً جداً، ولكنه أراد مضاعفة ثروته، فطلب إلى الإله أن يمنحه القدرة على تحويل كل ما يلمسه ذهباً. فاستجاب الإله إلى طلبه.

«دعوني أتذكّر ما جرى: لقد حوّل ميداس، أول الأمر، أثاثه ذهباً، ثم قصره وكل ما يحيط به. عمل طوال فترة الصباح، ووجد نفسه أمام حديقة من ذهب، وأشجار من ذهب، وسلالم من ذهب. وعند الظهر أحس بالجوع وأراد أن يأكل، ولكن عندما لمس فخذ الضأن الشهيّ الذي أعدّه له طبّاخوه، تحوّل الفخذ ذهباً، فهرع يائساً، إلى زوجته لكي يطلب إليها أن تساعده، لأنه أدرك الخطأ الذي ارتكبه. ولم يكد يلمس ذراع زوجته حتى تحوّلت تمثالاً من ذهب. فرَّ الخدم، جميعهم، مذعورين لئلّا يصابوا هم أيضاً. وفي أقل من أسبوع، مات ميداس من الجوع والعطش، محاطاً بالذهب من كل ناحية».

سألت زوجة رئيس البلدية بعدما عادت إلى مكانها قرب زوجها:

ـ لمَ تسردين علينا هذه الحكاية؟ أتريدين إيهامنا أن إلهاً قد جاء إلى بسكوس ووهبنا تلك القدرة؟

ـ «أسرد عليكم هذه الحكاية لسبب بسيط هو أن الذهب، في حد ذاته لا يساوي شيئاً، لا يساوي شيئاً على الإطلاق. فنحن لا نستطيع أكله، ولا شربه، ولا استعماله لشراء حيوانات وأراضٍ. إن ما له قيمة هو المال النقدي. أخبروني كيف نحوّل هذا الذهب نقوداً؟

«باستطاعتنا أن نفعل شيئين اثنين: أن نطلب إلى الحدّاد أن يصهر هذا الذهب ليجعل منه مئتين وإحدى وثمانين قطعة متساوية الحجم، ويستبدل كل واحد قطعته من مصرف المدينة. في هذه الحالة، سوف تُحاط السلطات عِلماً على الفور، لأنه لا وجود لمنجم ذهب في هذا الوادي. كيف نفسر، حينئذ، وجود سبيكة صغيرة لدى كل مواطن في بسكوس؟ يمكننا القول إننا عثرنا على كنز سلتيٍّ قديم، ولكن معاينة سريعة سوف تكشف أن الذهب استُخرج وشبك حديثاً، وتذكُر السلطات أن الأرض في هذه المنطقة سبق أن نُقِّبت، ولو كان لدى السلتيين كميات من الذهب، لكانوا بنوْا مدينة رائعة.

قال مالك الأراضي:

ـ أنت فتاة جاهلة، سوف نأخذ السبائك إلى المصرف، مدموغة مرقَّمةً، نستبدل بها نقوداً نتقاسمها فيما بيننا.

ـ «هذا هو الاحتمال الثاني. سوف يأخذ رئيس البلدية السبائك العشر إلى المصرف لاستبدالها. لن يطرح أمين الصندوق الأسئلة التي قد يطرحها فيما لو تقدّم كلّ منا بسبيكته الصغيرة. وبما أن رئيس البلدية مسؤول رسمي لن يطلب منه سوى شهادات الشراء، وبما أن تلك الشهادات غير متوافرة، فسوف يريه رئيس البلدية أن السبائك مختومة حسب الأصول.

«في هذا الوقت سيكون الرجل الذي أعطانا الذهب بعيداً،

وسوف يطلب أمين الصندوق مهلة، حتى لو كان رئيس البلدية معروفاً لديه وأهلاً للثقة، إذ ينبغي له أن يطلب إذناً لصرف هذه الكمية العينية الكبيرة. وسوف يلجأ مدير المصرف إلى معرفة مصدر هذا الذهب. وبما أن رئيس البلدية رجل ذكي، ولديه الجواب عن كل سؤال، أليس كذلك؟ سوف يقول الحقيقة: إن رجلاً غريباً أهدانا الذهب، ولكن المدير، حتى لو صدّق شخصياً هذا القول، فإن قدرته على التقرير محدودة. لذا يتوجّب عليه، منعاً لأي مجازفة، أن يرجع إلى المقرّ المركزي للمصرف. وهناك، لا أحد يعرف رئيس البلدية. وتقضي القاعدة باعتبار تحريك أي مبلغ ضخم أمراً مشبوهاً. سيطلب المقرّ المركزي، بدوره، مهلة. ولن يتم أي تحويل للمال قبل معرفة مصدر الذهب. وتصوّروا معي أنهم اكتشفوا أن هذا الذهب قد سُرق؟ أو أنه سلك عبر مهرّبي المخدرات؟

توقّفت شانتال عن الكلام هنيهة. إنه الخوف نفسه الذي انتابها، عندما حاولت الاستيلاء على سبيكتها، وقد غدا الآن خوفاً يتقاسمه الجميع. إن تاريخ إنسان واحد هو تاريخ البشرية بأسرها.

ختمت الآنسة بريم قائلة:

ـ لهذا الذهب حكاية، وقد تنجم عن حيازته نتائج خطيرة.

اتجهت الأنظار، جميعها، نحو الغريب الذي لبث طوال الوقت، هادئاً:

ـ من غير المجدي طلب توضيحات منه، لأن ذلك يعني الثقة به، ورجل يطلب ارتكاب جريمة، لحسابه، غير جدير بأيّ ثقة.

اقترح الحدّاد قائلاً:

ـ باستطاعتنا احتجازه هنا ريثما يتمّ تحويل الذهب نقوداً.

بإشارة خاطفة من رأسه، أحال الغريبُ هذا الأمر إلى مالكة الفندق، فقالت:

ـ لن يستطيع أحدٌ مسَّه. لديه أصدقاء نافذون. وقد سمعته،

غير مرة، يتحدّث إليهم بالهاتف، وقد حجز مقعداً على متن إحدى الطائرات. فإذا اختفى سوف يقلق أصدقاؤه، وسيطلبون إجراء تحقيق يستهدف كل سكان بسكوس.

أضافت شانتال:

ـ باستطاعتكم أن تقرروا قتل هذه المرأة الطاعنة البريئة. وبما أنني أعرف أن ذلك شرك نصبه لكم هذا الغريب، فأنا أرفض الاشتراك في هذه الجريمة.

قال مالك الأراضي:

ـ إنك أعجز من أن تدركي!

ـ بلى، إني واثقة بما أقول، كثقتي بأن رئيس البلدية لن يلبث أن يجد نفسه وراء القضبان. وستصبحون، جميعكم، متهمين بسرقة هذا الذهب. أما أنا، فبمنأى عن أيِّ تهمة. ولكنني أعدكم بأني لن أكشف سرّكم: سوف أقول إنني أجهل ما جرى. ثم إن رئيس البلدية، رجل نعرفه جيداً، بعكس هذا الغريب الذي سيغادر بسكوس غداً. من الممكن أن يتحمَّل الخطأ وحده، يكفي أن يقول إنه سلب رجلاً كان مارّاً ببسكوس، وسوف نُجمع، كلنا، على اعتباره بطلاً، ولن تُكشف الجريمة إطلاقاً. وهكذا يواصل كل منّا حياته، على نحو أو آخر، ولكن بلا ذهب.

صرخ رئيس البلدية، مدركاً أن أحداً منهم لن يستجيب لهذيان هذه المجنونة:

ـ إني أقطع لكم عهداً!

في هذه اللحظة سمعت قرقعة خافتة: إذ فتح أحد الرجال مغلاق بندقيته.

صاح رئيس البلدية:

ـ ثقوا بي! إنني أقبل المجازفة!

تتالت قرقعات فتح المغاليق، ما يعني أن الرجال قرّروا الامتناع

عن إطلاق النار: فمنذ متى يمكن الركون إلى وعود السياسيين؟ بندقيتان اثنتان بقيتا جاهزتين للإطلاق: بندقية رئيس البلدية المصوَّبة باتجاه الآنسة بريم، وبندقية الكاهن المصوَّبة باتجاه برتا. انقضّ الحداد، الذي شعر، لتوّه، بالشفقة على المرأة العجوز، على الرجلين، وانتزع سلاحهما.

كانت الآنسة بريم على حق: إنها لمجازفة أن نصدّق الآخرين. ويبدو أن الجميع أدركوا ذلك، إذ راحوا يتفرّقون.

بهدوء، سلك الجميع درب القرية: الشيوخ أولاً، ثم الأصغر سناً. عاد كل منهم إلى مشاغله المعهودة: حالة الطقس، جزُّ صوف الخراف، حراثة الحقل، موسم الصيد القريب. لم يحدث شيء، لأن بسكوس قرية ضائعة في الزمن، حيث كل الأيام متشابهة.

وردّد كلّ منهم في سرّه أن نهاية الأسبوع، هذه، لم تكن سوى حلم أو كابوس.

* * *

٢٤

لم يبقَ في حوش الغابة سوى برتا، المنوّمة المقيّدة إلى النُصب، وإلى جانبها شانتال والغريب.

قال الغريب:

ـ إليك ذهب قريتك، ينبغي لي أن أرضخ لحكم الواقع: فهو لم يعد ملكاً لي، ولم أحصل على الجواب الذي كنت أنتظره.

ـ ذهبُ قريتي؟ لا، إنه لي، وكذلك السبيكة المدفونة قرب الصخرة الشبيهة بحرف Y. وسوف ترافقني إلى المصرف لتحويل هذه السبائك نقوداً، إني لا أثق بكلامك المنمَّق.

ـ كنت تعلمين جيداً أنني لن أفعل ما أقنعتِ الجميع بأنني سأفعله. أما احتقارك لي، فهو ليس، في الحقيقة، سوى احتقارك لنفسك. عليك أن تعترفي بفضلي في كل ما جرى، لأنني عندما أريتك الذهب، أعطيتك أكثر من احتمال أن تصبحي ثرية. لقد أجبرتك على التصرف، وعلى الكفّ عن شكواك من كل شيء. كان باستطاعتي، منذ اللحظة الأولى، أن أعبّر عن وجهة نظري حول الطبيعة البشرية. إن بسكوس، وإن كانت اليوم في حالة انحطاط، فقد عرفت ماضياً زاخراً بالمجد والحكمة، وكان باستطاعتي أن أعطيك الجواب الذي كنت تبحثين عنه لو أنني تذكّرته في حينه.

عملت شانتال على فكّ قيد برتا، ولاحظت خدشاً في جبهتها نجم عن وضع رأسها على الصخرة، لكنه خدش بسيط للغاية. ولم

يبق سوى مشكلة واحدة، وهي الاضطرار إلى البقاء في هذا المكان حتى الصباح، ريثما تصحو برتا من غيبوبتها.

سألها الرجل:

ــ أيسعك، الآن، أن تعطيني هذه الإجابة؟

ــ لا بدَّ من أن أحداً حدّثك عن لقاء القديس سافان وآهاب؟

ــ طبعاً. عندما جاء القديس، تحدّث، بعض الوقت، مع آهاب. وانتهى الأمر بآهاب، إلى تغيير دينه، عندما أدرك أن شجاعة القديس تفوق شجاعته.

ــ بالضبط. ولكن ينبغي القول إنه، منذ مجيء القديس، وطوال حوارهما، لم يتوقّف آهاب عن شحذ خنجره، ولكن ذلك لم يمنع سافان من أن ينام مطمئناً. فقرر آهاب، ظنّاً منه أن العالم انعكاس لذاته، أن يتحدّى ضيفه، فسأله:

ــ إذا دخلتْ، فجأة، إلى هنا أجمل غانية في المدينة، هل تستطيع القول إنها غير جميلة وغير جذّابة؟

ــ لا، ولكنني سأتمكّن من زمّ نفسي.

ــ وإذا قُدّمت إليك كمية كبيرة من قطع الذهب لكي تغادر الجبل وتنضم إلينا، هل تستطيع أن تنظر إلى تلك القطع كما لو أنها حصى؟

ــ لا، ولكنني سأتمكّن من زمّ نفسي.

ــ وإذا جاء شقيقان اثنان لمقابلتك، أحدهما يكرهك، والثاني يرى فيك قدّيساً، فهل تستطيع أن تعاملهما على قدم المساواة؟

ــ حتى وإن كان ذلك يؤلمني، فسوف أتمكّن من زمّ نفسي، وأعاملهما بالأسلوب نفسه.

توقّفت شانتال عن الكلام قليلاً.

ــ يقال إن هذا الحوار كان على قدر كبير من الأهمية. فقد حمل آهاب على تغيير دينه.

لم يكن الغريب في حاجة إلى أن تشرح شانتال الحكاية له من أن لدى سافان وآهاب الميول الفطرية نفسها. كان الخير والشر يتعاركان للسيطرة عليهما، مثلما يتصارعان للسيطرة على النفوس، جميعها، في الأرض. عندما أدرك آهاب أن سافان شبيهه، أدرك، في الوقت عينه، أنه شبيه سافان.

كانت المسألة كلها مسألة زمّ نفس، واختيار.

ولا شيء سوى ذلك.

* * *



٢٥

ألقت شانتال، نظرةً أخيرة على الوادي، والجبال، والأجمات حيث أَلِفت التجوال في صغرها. وأحسَّت في فمها، بطعم الماء العذب، والفاكهة الطازجة، والنبيذ المنزلي، المخمّر من أجود العنب في المنطقة، والذي يحتفظ به السكان باعتزاز، ذلك أنه منتوج غير مخصّص للسياح أو للتصدير.

لم ترجع إلى القرية إلا لتودّع برتا. كانت ترتدي الثياب ذاتها التي تعوّدت ارتداءها، لكي تتجنّب أن يكتشف أحد أنها، بعد سفرها القصير إلى المدينة، قد أصبحت إمرأة ثرية: لقد تكفَّل الغريب بكل الإجراءات، ووقَّع الأوراق اللازمة لنقل ملكية المعدن، وتحويله أموالاً نقدية أودِعت حساب الآنسة بريم الذي فُتح لهذه الغاية. لم يستطع أمين الصندوق، وهو في العادة رصين ومتكتم وفقاً لنظام المصارف، أن يحبس عنها نظراته المختلسة لشدَّة ما فتنته: «إن هذه الفتاة عشيقة رجل ناضج. ولا بدَّ من أن تكون مُرضية جداً في السرير، حتى تبتزَّ منه هذا المال الوفير».

التقت بعض السكان. لا أحد يعلم أنها سترحل، وقد حيَّوْها وكأنَّ شيئاً لم يكُن. كأنَّ بسكوس لم يزرها الشيطان. وكانت تردّ التحية، بدورها، كان اليوم شبيه بسائر أيام حياتها.

لم تكن تدري إلى أيّ درجة تغيَّرت بفضل كلّ ما اكتشفته في ذاتها. ولكن، أمامها متّسع من الوقت لكي تتعلّم.

كانت برتا جالسة أمام منزلها. لم تعد مرغمة على رَصْدِ الشر. وباتت لا تدري كيف تقضي ما تبقّى لها من العمر.

ـ سيبنون نافورة ماء تكريماً لي. وهي مقابل صمتي. إنني مسرورة لذلك، وإن كنت أعلم بأنها لن تعمِّر طويلاً ولن تروي ظمأ الكثير من الناس، ما دامت بسكوس محكومة بالزوال: ليس لأن الشيطان مرَّ من هنا، بل جزاء العصر الذي نحياه.

سألتها شانتال كيف ستكون نافورة الماء، فأجابت برتا بأنها طلبت أن يزيّنوها بشمس وضفدع في وسطها حيث ينبجس الماء:

«الشمس ترمز إليَّ، والضفدع يرمز إلى الكاهن».

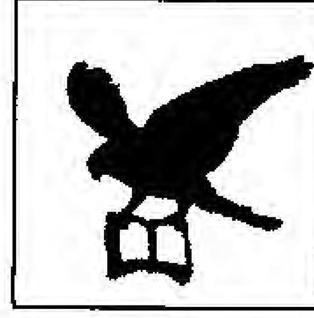
ـ أريد أن أروي ظمأك للنور، وسوف أبقى بينكم ما دامت نافورة الماء هنا.

تذمَّر رئيس البلدية من كلفة الأعمال، ولكن برتا لم تتنازل. وينبغي له الآن أن ينفّذ: سوف تبدأ الورشة في الأسبوع المقبل.

ـ أما أنت، يا ابنتي، فستفعلين ما سبق أن اقترحته عليك. أستطيع أن أقول لك، دونما تردّد: قد تقصر الحياة وقد تطول، فكل شيء مرهون بالطريقة التي نحياها بها.

ابتسمت شانتال، وعانقت صديقتها القديمة بحنان، وأدارت ظهرها لبسكوس دون تفكير بالعودة. كانت برتا على حق: ما من وقت نضيعه، وإن كانت تأمل بأن حياتها ستكون مديدة.

٢٢ كانون الثاني (يناير) ٢٠٠٠
الساعة الثالثة والعشرون
وثمانٍ وخمسون دقيقة.



- موسوعة الأمثال والحكم والأقوال العالمية ـ منير عبود
- عشرون روائياً عالمياً يتحدثون ـ عصام محفوظ
- مختارات من الشعراء الرواد في لبنان ـ عصام محفوظ
- قصة يوطوبيا ـ قصة مشربية ـ حسن فتحي
- جدلية الحب والموت عند جبران خليل جبران ـ د. بطرس حبيب
- الحب والتصوف عند العرب ـ د. عادل كامل الآلوسي
- سنوات ضائعة من حياة المتنبي ـ هادي محيي الخفاجي
- الطربوش ـ روبير سوليه
- مهما قلت لا تقل ـ د. نبيل سليمان
- امرأة تبحث عن وطن ـ ماريا المعلوف
- خطوات أنثى ـ رُدينة الفيلالي
- أثواب الحزن ـ هدى السراري
- وراء الأفق ـ ابراهيم أبو زيد
- دريد لحام/ مشوار العمر - د. فاروق الجمال
- بساطٌ من الزهر الأحمر ـ نيلوفر بازيرا
- إمرأة. . . وظلّان ـ خلود عبد الله الخميس
- اعترافات غايشا ـ آرثر غولدن
- خريف من ذهب ـ جوزيف طوبيّا
- عودة النبض ـ نوال نجم
- مغامرة حب في بلاد ممزقة ـ جين ساسون
- سموّ الأميرة - جين ساسون
- يساورني ظنٌّ أنهم ماتوا عطاشى ـ غسّان علم الدين
- طلاق الحاكم ـ منى دايخ
- حقيبة حذر ـ عاطف البلوي
- ألف عام من الصلاة ـ ييون لي
- حبٌّ محرَّم ـ يوكيو ميشيما
- بيل كانتو ـ آن باتشيت
- إيزيس في القدس ـ منى دايخ
- عشّاق أمي ـ هاجر عبدالسلام
- وراء الأفق - إبراهيم أبو زيد
- هل كنا مثل أي عاشقَين - نافتح سارنا
- الخامدون - ربى عنبتاوي
- هو وهي في السعودية - هتّان بن محمد الطاسجي
- نسرين ستموت الليلة - رواية بوليسية - خديجة نمري
- حبيبتي الحقيقة - أحمد طقش
- الوردة الضائعة - رواية سردار أوزكان
- أرملة مهندس - صالح ابن عايض
- بومبي - روبيرت هاريس
- مصائر الغبار ـ راوي حاج
- الصرصار - راوي حاج
- ويسألونك عن الذاكرة - د. عبد السلام فزازي
- فتاة من بلغراد - لويس دو بيرنيير
- أصل الغواية - قصص قصيرة - منتهى العزة
- دماء الأزهار - أنيتا أميرسفاني
- باب للخروج - طارق محمود فراج
- امرأة للشتاء المقبل - روحي طعمة
- الحريم اللغوي - يسرى مُقدّم